

قصص القرآن

ملاحم في فلسفة التاريخ

سماحة السيد محمود الموسوي



سلسلة الفكر السنائي

قصص القرآن

ملاحم في فلسفة التاريخ

سماحة السيد محمود الموسوي

مركز الفكر السنائي
للدراسات والبحوث

مُحْفُوظٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

■ هوية الكتاب:

* الكتاب: قصص القرآن.. ملامح في فلسفة التاريخ.

* المؤلف: ساحة السيد محمود الموسوي.

* الطبعة: الأولى: ١٤٣٩هـ-٢٠١٧م.

* الناشر: مركز الفكر الرسالي للأبحاث والدراسات.

* التنسيق والإخراج الفني: الكليم للتصميم:

نقال: +973 36577227

البريد الإلكتروني: mohd.he@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة

منذ الستينيات من القرن المنصرم والفكر الرسالي يواصل عطاءاته في ساحة الفكر، وقد ساهم هذا الفكر في طريق نهضة الأمة، من خلال آلياته ومصادره الإسلامية الأصيلة المتمثلة في كتاب الله العزيز، وسنة النبي الكريم ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام، والعقل المسترشد بهديهم النير. وقد تبلور الفكر الرسالي في مدرسة رسالية راسخة في التجربة، واسعة في العطاء، للكثير من الجوانب التي اهتمت بها.

وتحولها إلى مدرسة فكرية رائدة يعني أنها تناولت وعالجت العديد من جوانب الحياة التي تصوغ حياة الإنسان كنظام حياة، فكان لها العطاء في الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية المختلفة.

ولأننا نؤمن بأن الفكر الرسالي قد قدم نظرياته وإسهاماته المعبرة عن الروح النابضة والناهضة للإسلام - الذي أراده الله أن يقود الحياة - فإننا نقوم في هذه السلسلة من الإصدارات (سلسلة الفكر الرسالي)، باستظهار بعض إسهامات الفكر الرسالي وقراءاته، من خلال إسهامات مداد رجالته، كبعث جديد، أملاً في أن يأخذ الفكر الرسالي موقعه الريادي في حياة الأمة، واكتشاف جوانبه المشرقة.

سلسلة الفكر الرسالي





هذه الدراسة

من أكبر أمراض البشر أنهم يعيشون يومهم الزماني في حدوده الضيقة، فلا يتعدى التفكير في ما قبله ولا في ما بعده، فإذا أصيب الإنسان بهذا الداء ستحتوشه ذئاب مختلفة من كل جانب، تلك الذئاب هي التحديات التي تعمل على عدم فاعلية الإنسان على مسرح الحياة بشكل إيجابي سليم. ونحن كمجتمع مسلم يدعونا ديننا إلى الفاعلية الإيجابية وإلى قيادة الأمة نحو مستقبل زاخر بالصلاح، ومتفيء تحت ظلال شجرة الحياة الطيبة لقيم الدين التي تتفرع أغصانها وتدخل كافة جوانب حياته، لينعم بشاؤها.

التاريخ مفردة استعملها الكثير من الناس، ولكن كل بحسب نظره المعرفي، ساقه بعض بالفاظ لها طلاوة الأدب تسلية للفتاد، أو هروباً من واقع معاش، فيحكيه كألف ليلة وليلة، وألف سلوى وسلوى، وساقه البعض كبرهان على الاعتزاز والتفاخر بما أحدثته أو أنجزته السلالة النسبية، بما لم

يكن له يد ونصيب فيما قدموه أو أخروه، إلا ملئ فراغ الخيبة بأصداء الإنجاز أو سراهه.

ولكن التاريخ في المفهوم الإسلامي، هو كائن حي، ينطق إذا نطق به العقلاء، فيمكنه أن يعلم ويرسم الطريق نحو فاعلية حيوية تجترح الإنجاز تلو الإنجاز، فما كان من مشكلات البشرية في النظر للتاريخ جاء الإسلام ليعطي له الدور الإيجابي في حياة الإنسان، وجاء ليرمم ذاكرته المخرومة، التي عادة ما تنسى دروس التاريخ وعبره، الذاكرة الناسية الغافلة هي آفة التعاطي مع التاريخ، فكنوزه ملأى ولكنها تحتاج إلى ذاكرة حاضرة بوعيتها فيه، لتخرج منه ببصائر للحياة القائمة والقادمة.

الدراسة التي بين يديك عزيزي القارئ، تفضل بها سماحة السيد محمود الموسوي من البحرين، استظهاراً لحيوية التاريخ في النظرة القرآنية من خلال ما سرده الله عز وجل من قصص قيّمه في كتابه الحكيم، وقد عمد إلى الدخول في دراسة القصص القرآنية من جهة فلسفة التاريخ، حيث تناول قصص الحضارات في القرآن الكريم دون قصص الأفراد أو غيرها.

بعد أن يسرد لنا المؤلف تاريخ التعاطي في موضوع فلسفة التاريخ، يبين أثر القرآن الكريم على ذلك التعاطي، ثم يحاول في مقاربة جادة بين القصص القرآنية وبين مسارات ومقولات فلسفة التاريخ، ويضمّن الدراسة قسماً آخر منفصلاً تسلسلياً، ولكنه متصل موضوعياً بقصص القرآن في ناحيتها الحضارية، ويقدم تدبرات في آيات من سورة الشعراء حول قصة قوم ثمود ونيهم صالح، تحت عنوان (رؤية قرآنية في مسار الحضارات).

مركز الفكر الرسالي





تقديم

كلّما أمعن الباحث النظر في القرآن الكريم، وكلّما تدبّر في آياته وسبر معارفه، شعر بطراوة القرآن الكريم أكثر، والبداية دائماً في عملية التدبّر القرآني وانفتاح القلوب على آيات الذكر الحكيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١). فالقرآن الكريم هو البحر الزاخر الذي لا ينضب وهو العيون المتفجرة بالمعارف في كل عصر، ومن أجل ذلك لا يمكن أن نوصد الأبواب على بعض الدراسات القرآنية وإن قدّم فيها العلماء عطاءات متميّزة، لأن التميّز غير نافذ في آيات الله، وعجائب القرآن لا تنقضي على مر العصور، ومن هنا تتأكد أهمية البحوث حول القرآن الكريم وحول المعارف التي سمّيت بعلوم القرآن والتي ينبغي أن تكون هي الأدوات المنهجية التي تعود على الباحث بالمعرفة المستمرة.

في هذا البحث نعمل إلى مفهوم (القصص) في القرآن

الكريم كإداة منهجية بالدرجة الأولى، أي كإداة يفترض أن تُبحث ضمن علوم القرآن الكريم، العلوم المولدة للمعارف، فهناك من بحثها ضمن الدلالة والفائدة وضمن الشكل الفني، وبعض بحثها ضمن التفسير الموضوعي الجمعي، أو من ناحية الموعظة الفردية، وفي كل ذلك الفائدة، إلا أن الأقل في التناول البحثي هو بحث (القصة) كمفهوم معرفي في علوم القرآن الكريم، لتأخذ بعداً توليدياً لمعارف متجددة، أي بحثها كأداة منهجية، لا كموضوع جزئي في المعرفة.

نحاول تسليط الضوء على موضوع القصة القرآنية في بعدها الجمعي والأمني والحضاري، ومقاربة دخلتها في مادة التاريخ، لا كسير وأحداث بل كمفاهيم وأدوات، فالتاريخ هو مجموع الأحداث التي جرت وتعاقبت على الناس في الماضي، فموضوعه الوقت والزمن وتعقب ما جرى فيه من أحداث وقصص وسير، ولكن ما أطلق عليه فلسفة التاريخ، هو البعد المنهجي في وعي التاريخ وسير أحداثه، وهو البحث في القوانين والسنن التي تربط الأحداث وتفسر مجرياتها في الأحوال المختلفة من الركود أو التراجع أو التقدم والنمو، وهذه الخاصية ترتبط بشكل

الوجود الجماعي للبشر، أي تبحث في تاريخ الأمم والحضارات لمعرفة القوانين الحاكمة والمؤثرة من أجل الاستفادة منها في بناء وتفسير الواقع واكتشاف ورسم المستقبل.

فالتداخل في بحثنا هو بين قصص الأمم في القرآن من جهة وفلسفة التاريخ، ومحاولة اكتشاف وتسليط الضوء على بعض الملامح التي لها دخالة في معرفة القوانين والسنن الفاعلة في مجريات المجتمعات والحضارات. ولا شك أن للقصص القرآنية جوانب عديدة لا تقل أهمية، كالاختبار للفرد وتشكيل قناعاته من خلال أحداث القصص، وكالموعظة التي ينهلها من شكلها الفني، إلا أن لموضوع القوانين المؤثرة في المجتمعات أهمية بالغة لقوة تأثيرها وسعته.

لقد ألفت هذه الدراسة في بادئ الأمر في مؤتمر القرآن الكريم المعنون ب (القرآن وسؤال النهضة.. دور الدين في نهضة الأمم وبناء الحضارات)، الذي أقيم في مدينة سيهات سنة ١٤٣٦ هجرية، ثم قمت بالتعديل عليها في سنة ١٤٣٨ هجرية ليعد للطباعة، وألحقت به فصلاً رأيته منسجماً مع الموضوع بعنوان (رؤية قرآنية في مسار الحضارات) الذي طبع

في مجلة البصائر الدراساتية الصادرة عن مركز الدراسات في
حوزة الإمام القائم العلمية، في عددها رقم ٢٩، الصادر سنة
١٤٢٤ هجرية، وقد كنت كتبت على شكل حلقات توزع في شهر
رمضان المبارك قبل عدة سنوات من تاريخ نشره.

وأسأل المولى القدير أن يوفقنا للإستفادة من القرآن الكريم
في كافة حقوله، وأن يضيء دروبنا بنور هداه، بحق النبي ﷺ
وأهل بيته الطاهرين.

محمود الموسوي

بني جمرة - البحرين

١٩ شهر رمضان المبارك ١٣٣٨ هـ

١٤ / ٦ / ٢٠١٧ م



القسم الأول

قصص القرآن
ملاح في فلسفة التاريخ





الإشتغال بفلسفة التاريخ.. لمحة تاريخية

ارتبطت النظريات في فلسفة التاريخ - التي تحاول اكتشاف روح التاريخ وقلبه النابض والجامع القانوني المشترك المؤثر في حركته - بأساس النظريات الاجتماعية، فقد صيغت النظريات الاجتماعية بناء على النظرة المستنبطة من فلسفة التاريخ وفهم نمط حركته واتجاهاته، لذا فإن علماء الاجتماع إنما يطرحون نظرياتهم في صياغة المجتمع من منطلق التبشير بالرؤية التي يعتقدون صحتها في بناء الحضارة وتقدّم المجتمعات البشرية، أو من منطلق تفسير تلك النظريات لأسباب سقوط المجتمعات وتخلفها.

فالنظرة لفلسفة التاريخ هي مقدّمة علمية تصيغ البصيرة لوعي عوامل النهوض الحضاري، ووعي أسباب التخلف أو السقوط والإنهيار الحضاريين.

واقع التنظير في فلسفة التاريخ

لم يكن اهتمام المفكرين بفلسفة التاريخ حديثاً، فقد اهتم

العديد منهم في الكشف عن ذلك السر في بناء المجتمعات والحضارات منذ القدم، إلا أن الحركة العلمية التدوينية أخذت في التطور بيزوغ الإسلام، ولعل هذا يكشف لنا تأثير القرآن الكريم ودعوته في النظر للتاريخ بعين الاعتبار والتدقيق في آثار الأمم الغابرة لاستنباط البصيرة منها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾^(١)، وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

وقد تأثر العلماء من غير المسلمين بذلك المنحى في كشف حركة التاريخ بالجهود التي بذلها علماء المسلمين، يقول المؤرخ ج.هرنشو بهذا الصدد: «ربما كان التقدم الملحوظ في تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى (الأوربية) ناشئاً إلى حد بعيد من تأثير الحضارة العربية التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان. لقد تماسّت النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها في صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس، ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً لا في جملته ولا في

١ - سورة فاطر، آية ٤٤.

٢ - سورة يوسف، آية ١١١.

نفس الأساس الذي قام عليه... - إلى أن يقول: إن الصليبيين خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس... يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. ففي مجال التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عليه وحده، نجد المسعودي العربي يعرض في كتابه (مروج الذهب) عرض خبير، ماهو تاريخ غرب آسيا وشمال إفريقيا وشرق آسيا وإثنوغرافية هذه المناطق، ونجد ابن خلكان الدمشقي يصنف معجماً في التراجم التاريخية، ثم نجد شيخ مؤرخي العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسي (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) فقد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام، بلغت من سعة الإحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة، ما جعلها مصداقاً لما قال الأستاذ فلنت (flint) في حق ذلك العالم التونسي الكبير من أنه (واضع علم التاريخ)^(١). (انتهى كلامه).

إلا أن الحركة العلمية في محاولة بلورة نظرية اجتماعية في فلسفة التاريخ أخذت في النمو والتنوع عند علماء الغرب، بشكل ملحوظ في الكم، وتنوع في الإتجاهات، فتطورت النظرة للتاريخ ومكانته في صياغة النظريات المعرفية، ولعل الذي حفز

١ - تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، وجيه كوثراني، ص ١٤٥ عن علم التاريخ لـ ج. هرنشو.

العلماء على صياغة نظريات في حركة التاريخ هو التموّج الهائل الذي أحدثته العلوم والثورات وتأثير السلطات وشياع الحالة المدنية التي طغت على التصرفات حتى صارت لكل مجتمع صبغة خاصة وخصائص ماثرة، فقام العلماء بالبحث في السلوك ومؤثراته، وفي النتائج التي حصدها تلك المجتمعات. فالبحث عن تفسيرات معقولة لحركة المجتمعات من جهة، والبحث عن صياغة خاصة لتلك المجتمعات من جهة أخرى، ساهم بشكل كبير في دفع عجلة البحث العلمي في فلسفة التاريخ عموماً.

ملاحم المحتوى

وفي رحلة البحث عن الأثر في بناء المجتمعات من أجل إحراز التقدم الحضاري «كانت إحدى الطرق التقليدية في تقسيم النظريات الاجتماعية، هي التفريق بين النظريات (الكلية) -holistic والنظريات الفردية individualistic. والأولى أن تبدأ (بالمجتمع) ككل، معتبرة إياه شيئاً أكبر من مجموع المكونين له، وعلى هذا ترى أفعال الأفراد باعتبارها أفعالاً يحددها المجتمع الذي يشكلون جزءاً منه. - وقد نحى البعض إلى استبعاد أي أثر للفرد مقابل تأثير المجتمع من خلال روح معنوية هي الحاكمة

على سلوك الأفراد- أما الاتجاه الآخر فإنه يبدأ بالأفراد ويرى المجتمع نتاجاً لأفعالهم - ولا أثر للمجتمع في صياغة الفرد، لأنه متشكل من مجموعة أفراد، فالمحورية في هذا الاتجاه للفرد كأثر وحيد-. وكان هناك أيضاً من يرون أن كلتا العمليتين تجريان سوية: أي أن الأفراد يخلقون المجتمعات والمجتمعات تخلق الأفراد^(١). كما أضافت بعض النظريات الطبيعية كجزء من التركيبة الاجتماعية ونظروا لتأثيرها على مسيرة الإنسان وتقدمه المرتهن بطريقة تعامله مع ما حوله من أجزاء الطبيعة.

هذه التقسيمات وغيرها تحدّثت عن مؤثرات حيوية في حركة الإنسان، سواء كانت فردية أو اجتماعية أو طبيعية، وهي بذلك تبحث عن سنن وقوانين عامة حاكمة لحركة التاريخ من أجل صياغة المجتمع أو الفرد، وقد استمرت حركة السجلات الفكرية والنقد البناء لتلك النظريات من مفكري الغرب أنفسهم، كما وكان لعلماء الإسلام نصيب في حركة النقد تلك، والتي سعوا من خلالها إلى بناء رؤية في التاريخ وفلسفته على أنقاض نقدها، والأخذ بإيجابياتها في حركة علمية تحاكي القوالب

١ - النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، إيان كريب، ترجمة، د. محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، ص ٤٢.

التي أنتجها علماء الغرب، وبمعنى آخر فالجهود العلمية لعلماء الإسلام أخذت في عملية قبول ما يتوافق مع معطيات الفكر الديني من النظريات التاريخية الغربية، وأضافوا عليها ما يصح في نفس المضمار، لتتكون بعد ذلك نظرية يمكن نسبتها للإسلام.

لقد احتوت النظريات الغربية على متناقضات، ومغايرة تامة لبعض حقائق التاريخ نفسه، ومصادمة صارخة مع بصائر الوحي القرآني الذي هو مرجعية الفكر الإسلامي، فمن تلك النظريات ما هو صحيح في عمومياته كالسببية التاريخية، حيث الإيمان بإرجاع التقدّم والانحطاط في المجتمعات البشرية إلى أسباب ومسببات، ولم تكن مسيرة كما هو رأي (مونتسكيو) (١٦٨٩-١٧٣٥م).

ومنها ما لا يمكن قبوله لإيمانه بالحتمية التاريخية والجبرية الاجتماعية، كما في الدوائر الثابتة المطّردة، لـ(فيكو)، والتفسير الماركسي الإقتصادي لحركة التاريخ (الصراع في ظل حاكمية علاقة الإنتاج والقوى المنتجة)، وكما في المنهج التجريبي لـ(أوغست كونت) (١٧٩٨-١٧٥٧م)، الذي يؤمن بفلسفة حقة للتاريخ هي قانون عام يخضع لاستمرار التطور البيولوجي،

الذي يمر بمراحل ثابتة تنتهي إلى رفض المجتمعات إلى اللاهوت وانتصار المادية بواسطة العلم، وعلى ذلك جرت (التاريخانية) التطورية كمنحى في فلسفة التاريخ يقرّر تبادل الأثر بين الإنسان والطبيعة، (هيجل، باكل، انجلز، ماركس...).

وبعض تلك النظريات يقرر آثاراً مهمة في حركة التاريخ إلا أنه يعطيها المحورية والأساس الثابت، ويجعل المؤثرات الأخرى هامشية، كفولتير في إيمانه ب(محورية) السياسة المتمثلة في الملوك والقادة الذين يُحدثون التغييرات الكبرى في المجتمعات.

كما وجاءت البنيوية وهي: «القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته. إنها نسق من التحولات له قوانينه الخاصة، باعتباره نسقاً يتميز بثلاث خصائص: الكلية والتحويلات والتنظيم الذاتي. وكل تحول في أحد عناصر البنية يحدث تحولاً في باقي العناصر الأخرى»^(١).

ومن النظريات ما اقترب إلى روح الفطرة وآمن بالفضيلة كجزء مؤثر في حركة التاريخ وصناعة المجتمعات، ك(روسو) في بدايات القرن الثامن عشر في ترابط العلم والفضيلة لتقدم

الحضارات، ففقدان الفضيلة وانحراف الشباب عن التوجه لله في تربية نفوسهم هو عامل سلبي»، وكذا ألبرت أشفينسر في بدايات القرن العشرين أصر وعلى خلاف الواقع العلمي الغربي آنذاك على أن مشكلة الحضارة هي مشكلة أخلاقية في جانب، وفي افتقارها لنظرية في الكون^(١) في جانب آخر.

تطور الفكر التاريخي الحديث

تلك الحركة المتموجة للنظريات في فلسفة التاريخ في مجالها الغربي، تطورت بشكل ملحوظ في القرون الأخيرة، بل في القرن الماضي تحديداً، نتيجة عدة عوامل، من أهمها النظرة الإيدلوجية للمفكر، والتأثر بالتحويلات الحضارية في عصره، ولقد بدى ملحوظاً لدى الكثير من الدارسين للنظريات الاجتماعية والتاريخية أنها تأثرت بما بعد الحرب العالمية الأولى والثانية وما جرى من تحولات جذرية على الرقعة العالمية، والساحة الغربية تحديداً، وكذا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وأفول نجم الإشتراكية في بدايات التسعينيات من القرن العشرين الميلادي المنصرم، مما بلور رؤى جديدة تشكك في الجهود العلمية السابقة،

١ - راجع فلسفة الحضارة، ألبرت أشفينسر، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي.

وتؤمن إما بنهاية التاريخ وحاكمية المبادئ الديمقراطية للغرب، أو أنها تؤمن بالشك والنسبية في كل الأطروحات.

«لقد توصل مؤرخو القرن التاسع عشر إلى عدّة استنتاجات مشتركة فيما بينهم حول تفسير الماضي، ولكنهم اختلفوا في تفسيرات أحداث وظواهر تاريخية أخرى. هذا العمل الشاق الذي قام به مؤرخو القرن التاسع عشر هو الذي وضع الأسس العلمية التي قام عليها علم التاريخ بمفهومه الحديث، وإذا كان القرن التاسع عشر يوصف عادة بأنه (قرن الحقائق الأكيدة)، أي أن العلماء في شتى جوانب المعرفة الإنسانية ظنوا أنهم توصلوا إلى الحقائق الأكيدة، فإن هذا كان ناجماً عن حقيقة أن هذا القرن شهد أفول الدولة العثمانية، عدو أوروبا المرعب على مدى أربعة قرون سابقة، فضلاً عن بسط السيادة الاستعمارية الأوروبية على أنحاء العالم، قديمه وجديده.

وقد أدت هذه الحقائق التاريخية إلى نوع من الرضا عن الذات والإحساس باليقين الناتج عن الثقة بالنفس، وانعكس ذلك على طبيعة الحال على الثقافة الأوروبية التي جعلت من نفسها ثقافة مرجعية تقاس عليها أحوال العالم بأسره، ولم

يكن علم التاريخ استثناء من ذلك بطبيعة الحال. وهكذا كان القرن التاسع عشر هو القرن الذي شهد إرساء الأسس العلمية والمنهجية للدراسات التاريخية في أوروبا كما شهد إرهاصات القراءات الإيديولوجية المختلفة للتاريخ؛ وهي القراءات التي ميّزت تطوّر الفكر التاريخي في القرن العشرين»^(١).

ومن تطور الرؤية لحركة التاريخ في القرن العشرين ظهور نظريات تبشّر بحركة ثابتة وأكيدة لكل حضارة، أي أن لها بداية محدّدة ولها حياة تمر بها ولها نهاية حتمية لا بد أن تواجهها، وكان (أوزوالد شبنجلر ١٨٨٠ - ١٩٣٦م) هو من أرسا هذه النظرية «وأهم ما قدّمه في كتابه... أنه حاول أن يقدّم نظرية عامة للتاريخ وضع فيها أسس فكرته التي يدلّل بها على تدهور الحضارة الغربية، إذ قال: ((أن البشرية لا تشيخ، ولكل حضارة إمكانياتها الجديدة الخاصة في التعبير عن الذات، فهي تنشأ وتنضج ثم تضمحل، ولكنها لا تعود إلى سيرتها الأولى أبداً))، وكتابه عبارة عن دراسة مقارنة عن صعود حضارات كاملة وسقوطها. وقد تنبأ شبنجلر بانهاض الحضارة الغربية لأنها بلغت

١ - تطور الفكر التاريخي في القرن العشرين، ص ٥٩٦.

ذروة الميكنة، وقد شبه شبنجلر الحضارة بالكائن الحي الذي ينشأ ثم ينضج ويتدهور في النهاية»^(١).

وهذا الرأي ما تبناه ابن خلدون^(٢) أيضاً عندما شبه الحضارة بحياة الفرد من الولادة والطفولة وانتهائها إلى الشيخوخة ثم الموت، واعتقد أنها لا بد أن تمر بأربع مراحل تنتهي فيها عند الرابعة ثم تخلفها حضارة ومجتمع آخر ليبدأ دورة حضارية جديدة، «فالتاريخ والحضارة عند ابن خلدون دورة متصلة وصراع دائم على الملك والرياسة، أو ما يسميه ابن خلدون بالمدج والشرف، فأهل البداوة يتطلعون أبداً إلى التغلب على بلاد الحضرة للإستمتاع بخيراتها، فإذا وصلوا إلى الملك استناموا إلى الشرف وأخذت أجيالهم تضعف نتيجة لانغماسهم في الحضارة وفساد طبائعهم تبعاً لذلك، وهنا تتطلع أمة جديدة من أهل البداوة إلى الحلول محلهم في الملك والغنى والنعيم، ولا يزالون يعملون حتى يغلبوهم ويحلوا محلهم، وهكذا تستمر

١ - تطور الفكر التاريخي في القرن العشرين، ص ٦٠٩.

٢ - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (١٣٣٢م - ١٤٠٦م) مؤرخ تونسي المولد، مؤلف كتابه الشهير في الاجتماع والتاريخ المعروفة ب (المقدمة) حيث تناول فيه طبائع البشر واتحالفاتها والبيئة والعمران وأثرها على حياة الإنسان.

دورة التاريخ ودورة العمران^(١).

ومن أبرز النظريات التي آمنت بأن للحضارة مراحل إلا أن للبعد الإنسان وإرادة الإنسان المتمثلة في (التحدي والاستجابة) دوراً في تحديد مصير هذه الحضارة أو تلك، وهو توينبي - المؤرخ البريطاني (١٨٨٩م - ١٩٧٥م) «الذي درس إحدى وعشرين حضارة أصيلة، درسها دراسة مستوفاة، باحثاً في كل حضارة عن روحها ولبابها، وميزاتها، وسماتها، ثم أدلى برأيه في الحضارة، وهو رأي معتدل نوعاً ما، إذ انه لا ينسى التنويه بدور الإرادة البشرية، إذ انه استنبط من خلال دراسته: (أن تاريخ كل أمة من الأمم التي اختارها موضوعاً لدراسته، انها هو استجابة لتحدي الظروف التي وجدت فيها)^(٢). إن الاستجابة لا تقع بطريقة عشوائية أو حتمية، بل بوعي وإرادة حرة).

(وعند دراسة توينبي للحضارات التي اختارها، تبين أن المجموعات البشرية التي تقودها جماعات من القادة وأصحاب الرأي وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة، في استجابتها

١- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، ص ١٥٦، الناشر: عالم المعرفة، ط ٢، ١٩٩٨م.

٢- المصدر، ص ١٠٥.

للتحدي، ويحددون نوع هذه الإستجابة بحسب ملكاتهم فإذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها، والسير إلى الأمام كانت هذه الجماعة موفقة وسار تاريخ الجماعة إلى الأمام لأن الاستجابة كانت ابتكارية، أو ابتداعية، ولا تزال الأمة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الإستجابة الابتداعية، فإذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخي وربما توقف»^(١).

وفي المجال العربي - القومي العربي -، بدأت حركة الإشتغال بفلسفة التاريخ ونظرياته تأثراً بالنظريات الغربية، فكانت الكتابات هي امتدادات واتباع لما كتب في الغرب، (مع حفظ أسبقية تناول ابن خلدون) فمنهم من «اتبع المدرسة الإنجليزية، التي تؤمن بنظرية البطل في التاريخ ممن ساروا على درب (ت. كارليل)، ومنهم من تأثر بآراء الألماني (ليموند فون رنكه) ومدرسته التي لا ترى التاريخ إلا من خلال الوثائق، - في محاولة لمقابلة علم التاريخ بالعلوم الغيبية-. كما تأثر بعض

١ - المنطق الإسلامي، السيد المدرسي، ص ٥٧١، عن عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، ص ٧٦.

المؤرخين العرب بأفكار ونظريات أرنولد توينبي عن التحدي والإستجابة - المعاكسة للنظرية الماركسية -، وكان الفكر الماركسي قد استقطب عدداً من العقول العربية أيضاً. ومنهم من اهتم بالتاريخ القومي^(١).

ومن أوائل أثر السجال والتداول المعرفي المعاصر في فلسفة التاريخ طالعنا مجلة الفكر^(٢)، المجلة الكويتية الدورية المحكمة، في عددها الصادر في (أبريل - مايو - يونيو) ١٩٧٤م، في المجلد الخامس العدد الأول، بمحور حول فلسفة التاريخ، وكان الفهرس يحتوي على عدة دراسات هي (التاريخ ومشاكل اليوم والغد) لمحمد الطالبي، و(التاريخ والمؤرخون) لحسين مؤنس، و(صناعة التاريخ) لمحمد عواد حسين، و(التاريخ هل هو علم)

١ - تطور الفكر التاريخي في القرن العشرين، د. قاسم عبد قاسم، ضمن كتاب: حصاد القرن، المنجزات العلمية والإنسانية في القرن العشرين، المشرف العام: فهمي جدعان، مؤسسة عبد الحميد شومان، والمؤسسة العربية، ط: ١، ٢٠٠٧م.

٢ - جاء في تعريفها: مجلة عالم الفكر، هي مجلة دورية محكمة تصدر كل ثلاثة أشهر، وتهتم بنشر الدراسات والبحوث التي تتسم بالاصالة النظرية والاسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة. صدر العدد الاول منها في شهر أبريل عام ١٩٧٠، حيث كان المحور الرئيسي تحت عنوان «عصر الازمات» وكانت المجلة تصدر وقتها عن وزارة الاعلام الكويتية، وفي عام ١٩٩٤ انتقلت المجلة من وزارة الاعلام لتكون برعاية المجلس الوطني. وتعد مرجعا للباحثين والدارسين، لما تتسم به من منهج موضوعي رصين في طرح ومناقشة القضايا الفكرية والثقافية والادبية المعاصرة.

لشاكر مصطفى، و(أحدث النظريات في فلسفة التاريخ) لعبد الرحمن بدوي.

وفي المجال الإسلامي فإن مفكري الإسلام في القرن الأخير حاولوا إبداء وجهة نظر حول الفلسفة المحركة للتاريخ أو طرح نظريات في هذا الشأن، من خلال مناقشة النظريات الغربية وإبداء الملاحظات عليها، أو التعديل فيها، أو الإضافة عليها، كصياغة نظرية بديلة عن النظريات الغربية، لتوافق الرؤية الإسلامية.

يقول وجيه كوثراني عن كتاب عماد الدين خليل (التفسير الإسلامي للتاريخ) الذي صدر عام ١٩٧٥م، أنه: «ينبع من منهج سجالي مع الفلسفات التاريخية الغربية، للخلوص إلى اعتماد منهج تاريخي تكاملي يستخرج من منطوق الآيات في القرآن الكريم»^(١). حيث بحث تكاملية المنهج التاريخي وسنن التاريخ في القرآن، كما يشير إلى تأخر المسلمين في اكتشاف هذا المنهج، الذي اعتبر أن القرآن الكريم هو أول من كشف الغطاء عن حقيقة أن التاريخ تحكمه سنن وقوانين كما تحكم الكون

١ - تاريخ التأريخ، ص ١٣٥.

والحياة^(١). كما يذكر محاولة السيد محمد باقر الصدر رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، الذي ذكر أيضاً ما ذكره سابقه، من أن المسلمين أضعوا المفهوم القرآني للتاريخ القائم على السننية، يذكر كتابه (مقدمات في التفسير الموضوعي) الذي صدر عام ١٩٨٠م، ويصف مشروعه بأنه «يعبر عن صدقية أوفى في كشف أوالية هذا التأثير اللاواعي للعلم التاريخي الغربي في العقل الإسلامي المعاصر»^(٢). وكان مما أضافه الشهيد الصدر في الرؤية التي طرحها أواخر حياته، أن السنن التاريخية مطردة ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الإعتيادية التي تجري فيها الطبيعة على السنن العامة، وهي بهذا تعتبر قانون تاريخي بسمه علمية، وأكد على حقيقة ربانية السنة التاريخية، فهي سنة مرتبطة بالله تعالى، فكل قانون تاريخي هو كلمة من الله وهو قرار رباني ذا طابع غيبي، يمثل إرادة الله وحكمته وتديره في الكون، والحقيقة الثالثة هي إرادة الإنسان ودخالتهما في سنن التاريخ وعدم تعارضها مع بعد السننية.

١ - عماد الدين خليل من مواليد الموصل بالعراق، سنة ١٩٣٩م، حيث ذكر بعض الأفكار في كتابه الآخر (مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية) الذي صدر سنة ٢٠٠١م. عن الجامعة الإسلامية العالمية بالنيوزيا.

٢ - تاريخ التاريخ، ص ١٣٦.

ولم يأت المؤلف على ذكر تجربة وتناول المرجع الديني السيد محمد تقي المدرّسي التي سبقت تجربة الشهيد الصدر بثلاث سنوات حسب تاريخ التداول والنشر، حيث تناول السيد المدرّسي موضوع علم التاريخ وفلسفته في كتابه (المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه) الذي كتبه قبل سنة ١٩٧٧م، إلا أنه نشر في ذلك العام بحسب ما ذكره المؤلف في مقدمته.

وقد تحدّث السيد المدرّسي في كتابه حول التاريخ بأنه «ليس مجرد حوادث ماضية تتلاحق على مسار الزمن كقطر المطر، إنما هو تنظيم هذه الحوادث، وتعليلها، وتفسيرها، بالرغم من أن التاريخ قد استخدم في اللغة العربية للتعبير عن المعنى الأول، فترانا نقول هذا موجود في التاريخ، إلا أن المصطلح العلمي لهذا اللفظ أقرب إلى المعنى الثاني»^(١).

وقد عرض السيد المدرسي اتجاهات عامة في وعي فلسفة التاريخ مستفيداً من مجلة عالم الفكر التي صدرت سنة ١٩٧٤م في نقل المعلومات والنظريات المختلفة، وقام بإبداء ملاحظات

١ - المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، السيد محمد تقي المدرّسي، ص ٥٠٩، دار الجليل، بيروت، ط ٢.

نقدية على تلك الاتجاهات، ثم عرض حتميات التاريخ وما يعرض عليها من عوامل إرادة التحدي بحسب قراءة لمجموعة من آيات القرآن الكريم.

وقد انسحبت تلك الرؤية في مناقشة النظريات الحديثة ونقدها وطرح مقاربات إسلامية عند السيد محمد تقي المدرسي في كتاب (المجتمع الإسلامي) أيضاً، الذي صدر عام ١٩٨٢م، الذي يذكر نظرية أصالة الفرد أو البطل في صنع الحضارة، مقابل نظرية أصالة المجتمع وتطور أنماطه بحسب توينبي، ثم بعد ذلك يذكر النظرية التي يؤيدها الإسلام بأنها «تقف في الوسط بين النظريتين، وهي تعطي للفرد أهميته اللائقة، كما تعطي للمجتمع دوره المؤثر^(١)... ثم يدخل التعديلات الجوهرية كرفض الحتمية التاريخية بناء على معطيات القرآن الكريم.

وقد جرى على نفس هذا المجرى الشيخ مرتضى المطهري في كتابه (المجتمع والتاريخ)، والسيد محمد الشيرازي في كتابه (فلسفة التاريخ).

١ - انظر المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه، السيد محمد تقي المدرسي، ص ١٩، المركز الثقافي الإسلامي، ط ١، ١٩٨٢م.

وخلال اشتغال علماء الإسلام في هذا السجال، قدموا رؤى قرآنية أصيلة ومتميزة في البعد التاريخي وأثره على حركة المجتمعات، وإن لم تكن بالشكل النظري المعهود في الدراسات الغربية.

القرآن وسبق الرؤية التاريخية

النص القرآني يبقى هو المتقدّم في طرح طبيعة الرؤية للتاريخ، وبغض النظر عن المصطلحات التي تطورت عبر الإستخدام من المجال العربي القديم إلى الغربي القديم ثم الغربي الحديث، ثم انتقالها للمجال الإسلامي الحديث، فإن موضوع الإهتمام التاريخي أخذ حيزاً كبيراً في النص القرآني، وقد سرد القرآن الكريم أخبار الكثير من المجتمعات والأفراد، وقد حدد بوضوح تام طبيعة الإستفادة من هذا السرد، فهو ليس كمذكرات بطولية ذاتية للأفراد، أو قصص أمجاد آنية، أو تسالي وفنون أدبية، بل جاء السرد التاريخي في القرآن الكريم في سياق البحث عن انعكاس هذا التاريخ على بناء الحاضر والمستقبل، من خلال ما أطلق عليه (العبرة) التي يعبر من خلالها الباحث من حركة التاريخ إلى صناعة الحضارة.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(١)، واستخدم السرد التاريخي كأداة كاشفة للحقائق الإيمانية، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وقد جاء السرد التاريخي في نسبة كبيرة من الآيات، حتى أن العديد من تسمية السور هي إشارة إلى الحدث التاريخي الأبرز الذي تناوله السورة، كما في سورة (البقرة)، و(النمل) و(الأنبياء)، و(الفيل)، وغيرها، كما أن سورة (القصص) كان محوريتها الإعتبار من التاريخ وتقصي الحقائق في بناء الواقع السياسي الحضاري من خلاله، يقول آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي في في تفسيره بينات من فقه القرآن في المجلد الخاص بسورة القصص: «نتدبر في سورة القصص التي بين الله سبحانه فيها قصة حركة إصلاحية عظيمة، حيث بنو إسرائيل

١ - سورة هود ٤٩.

٢ - سورة يوسف ١١١.

وبقيادة نبي الله موسى عليه السلام انتصروا بإذن الله على فرعون وملئه، وقد بين ربنا من خلال القصة السنن (الأنظمة) التي لا بد من رعايتها عند القيام بإصلاح الوضع السياسي^(١).

إن القرآن الكريم فتح باباً جديداً لم يكن معهوداً من قبل، ففي الوقت الذي انتشرت فيه القصص الخرافية التي لا أصل لها، وقصص السمر والمجون وقصص التفاخر بالأنساب والأحساب، فتح القرآن الكريم العقل البشري على التاريخ كقصص وأحداث لها مغزى، بل ولها نظام دقيق يمكنه أن يتكرر في أي واقع، ووضع الإشارات الواضحة للإستفادة منه في الواقع بل وفي المستقبل، إذاً فالنظر للتاريخ بحسب القرآن الكريم ليس بهدف التغني بالأجداد والتفاخر بالأحساب، إنما تتركز هدفه في الإنتقاله من فكرة محورية في التاريخ لتطبيقها في الواقع إن كانت تدعو للخير والتقدم، أو للحذر منها إن كانت سبباً للتردي والسقوط، مما يضع العقل أمام حالة قانونية جارية في تلك المجتمعات وهي التي شكّلت تاريخهم وأثرت في انعطافاتهم.

١ - بينات من فقه القرآن (سورة القصص)، السيد محمد تقي المدرسي، ص ١٤.





القصة القرآنية كوحدة تاريخية

يمكننا أن ننظر للقصص القرآنية بوصفها تاريخاً يحمل مضموناً داخلياً بشكل أساس في بناء الإنسان، فالقصص بحسب المعطيات اللغوية هو اتباع الآثار وتقصي الحقائق، قَصَّصْتُ الشَّيْءَ إِذَا تَبَّعْتُ أَثْرَهُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ؛ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه؛ أَي اتَّبِعِي أَثْرَهُ»^(١)، و«الْقَصَصُ» بالفتح الاسم، وبالكسر جمع قِصَّةٍ. قوله: قُصِّيه [١١ / ٢٨] أي اتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه، من قَصَّ أَثْرَهُ تَبَّعَهُ. قوله تعالى: فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً [٦٤ / ١٨] الْقَصَصُ: تَبَّعَ الْأَمْرَ، وَهُوَ رَجُوعُ الرَّجُلِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ^(٢).

وإذا أردنا الحديث عن جانب (علم التاريخ) المتصل بالقصص القرآنية، نعي بأن لها خصائص تختلف عن سائر القصص التي تروى في التاريخ، فهي قصص قطعية الصدور،

١ - لسان العرب، ابن منظور، ج٧، ص٧٤.

٢ - مجمع البحرين.

يقينية المصدر (الإلهي) ولا ريب في أصلها وثبوتها، لأنها جزء عضوي من النص القرآني، وهذا الأمر يبعد عن القصة القرآنية أعمال المؤرخ في جانبه الحفري والتوثيق والتثبت، الأمور التي جاءت ضمن آليات البحث التاريخي ومقدماته المهمة لإثبات الوقائع. ولذلك سيكتف الباحث جهوده في المنحى الدلالي للنص القرآني، لينهل منها العبر في قوالب قوانين وسنن تاريخية تجري على الحاضر والمستقبل كما جرت على الماضين.

والقصة القرآنية قصة حقيقية، أي أنها وقعت في التاريخ فعلاً، وليست تخيلية كما زعم البعض، لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(١)، وتفيد كلمة بالحق المتصلة بحكاية القرآن الكريم للقصص ثلاث دلالات كما يذكر المرجع المدرسي في تفسيره من هدى القرآن:

أولاً: يذكر الأنباء الصحيحة.

ثانياً: يهدف من ورائها أهدافاً سليمة، أي عندما تورد الآيات القرآنية قصة فإنها تستهدف من ورائها تكوين حكمة صحيحة في ذهن الإنسان، وإقامة حكم الحق في العالم.

ثالثاً: إن مجريات القصة تتطابق مع السنن الحق في الحياة.
وهذه الأبعاد الثلاثة موجودة في كل قصة من قصص
القرآن^(١).

كما أن الله تعالى لم يذكر في القرآن كل القصص والتواريخ
للأمم السابقة ولم يسرد قصص جميع الأنبياء والرسل، بل ولم
يذكر كل تفاصيلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(٢)،
وذلك لأن السرد التاريخي عبر القصة القرآنية، لم يكن هدفه
الإمتاع وإثراء المعلومات عن حياة السابقين، بل كان تاريخاً
رسالياً، يخدم الإنسان في مجال قراءته لمجرياته، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا
نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، فالذكرى تتحقق من
خلال معرفة بصائر التاريخ، وتبقى مجرياته الأخرى متماثلة في
الحالة السننية.

فمن خصائص القصص القرآنية أنها جاءت كسلم للنهوض

١ - من هدى القرآن، ج ٥، ص ٢٧.

٢ - سورة غافر ٧٨.

٣ - سورة هود ١٢٠.

وإفادة الإنسان المعاصر، من خلال الإعتبار والتذكر والتدبر، كسنتن تاريخية جرت على الماضين، وتجري على سائر الأمم إذا ما تحققت الشروط الموضوعية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١)، و﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

فعبّر التذكر والتفكير في الأحداث التاريخية التي تسوقها القصص القرآنية يتم الإعتبار، إلا أن القرآن الكريم قد أحكم آياته، وفصل القول في سياق بصائره، فكانت العبرة ظاهرة (مشار إليها) في سياق الآيات، كما أن مع التدبر فيها يمكن استخراج المزيد من العبر.

ولتكاملية القصة في هدفيتها، باشتغالها على البعد التاريخي الحقيقي الواقعي، والبعد الرسالي الاستنباطي لبناء الواقع، فإن هذه القصص هي أفضل القصص، وقد جاء في الذكر الحكيم:

١ - سورة يوسف ١١١ .

٢ - سورة هود ١٢٠ .

٣ - سورة الأعراف ١٧٦ .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(١)، فهي أحسن القصص، أي أفضلها من حيث الحاجة الحضارية للإنسان، بل لكافة البشر، باعتبار أن القرآن جاء لهداية كل الناس، وهذه الدلالة تفيدها كلمة (أحسن)، فالحسن بالنظر القرآني ليس دغدغة مشاعر أو إضفاء ألوان تأسر النفوس، وإنما الحسن ما يكون حسناً للإنسان في كافة شؤونه، وما يكون متناسباً مع واقعه الشخصي والفكري والحضاري، وهذه هي معطيات لفظ الأحسن في آيات القرآن الكريم، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(٢). فالأحسن في مقام الهوية الدينية هي الهوية الأصيلة التي تستمد قوتها وشرعيتها من الله تعالى لتتأهل لمقام استحقاق العبادة وانتخابها من دون سائر الهويات والأديان.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ

١ - سورة يوسف ٣.

٢ - سورة البقرة ١٣٨.

كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١﴾.

إن المال الأحسن والمنقلب الأفضل هو التسليم لله تعالى بالطاعة له عز وجل والامثال للنبي ﷺ ولولاية الأمر الشرعيين، في كافة شؤون الحياة المتقلبة، وفي البحث عن الإجابات الشافية.

وهكذا في سائر الآيات، فالأحسن هو الحال الذي يمثل شرعية الحق والالتزام بالحق في طريق بناء الإنسان والحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٢)، وقوله عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٣)، وقوله عز شأنه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٤)، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥).

١ - سورة النساء ٥٩.

٢ - سورة النساء ١٢٥.

٣ - سورة المائدة ٥٠.

٤ - سورة الأعراف ١٤٥.

٥ - سورة فصلت ٣٣.

فمن تلك الدلالات القرآنية لكلمة الأحسن، نستفيد أن أحسن القصص هي تلك التي تواكب احتياجات الإنسان ويستل منها العبر التي تخلق له جسراً يعبر من خلاله كل التحديات والإبتلاءات الحضارية التي تواجهه في راهنه، وفقاً لمعطيات القرآن الكريم في تلازم العمل الأحسن مع التحدي والإبتلاء المعاصر للإنسان في قوله عز وجل: ﴿لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

إن إعلان القرآن الكريم أنه يقص على سائر الأجيال أحسن القصص، يعطي دلالات مهمة، منها:

- ١- الفائدة المستمرة التي تشمل واقع الإنسان ومستقبله.
- ٢- أن القصة القرآنية هي إحدى مصادر المعرفة ومنابع الفهم وأدوات التنظير الواقعي والمستقبلي.
- ٣- أن القصة القرآنية تحتوي على أفضل ما يمكن أن يستفاد منه في الواقع القانوني والسني المتصل بالمجتمعات والحضارات.

١ - سورة هود ٧.





القصة القرآنية في علوم القرآن

إن معرفة القرآن الكريم وسبل الاستفادة منه تقتضي من الباحث أن يتعرّف على آياته الخاصة التي جاء بها إضافة إلى الآليات العامة التي يعرف بها كلام العرب باعتبار عريته، فكما أن معرفة المحكم والمتشابه والخاص والعام والناسخ والمنسوخ من شروط المعرفة القرآنية، فكذلك معرفة أنواع الخطاب القرآني من شأنه أن يسهم في وعي أفضل بكتاب الله العزيز.

فللقرآن خطابات متنوعة في الإنفتاح على الحق، فهو تارة يخبره بحقيقة كونية يدعوه إلى التفكير فيها من أجل الوصول إلى حقيقة التوحيد، وحيناً يباغته بالتساؤل الذي يثير فيه دفائن عقله لتجيب فطرته بالحقائق، أو يعرض محاورات عقلية لبيان المفارقات من أجل كشف المستور وتبديد الركام الحاصل من غفلة الإنسان، ففي مثل هذا الجانب من الخطاب القرآني يفتح فيه آفاق الإيمان من أجل الوصول إلى قناعات صائبة في مجال العقيدة والتفكير.

والأسلوب القصصي السردى هو أحد الأساليب الذي تنوع فيها الخطاب القرآني لإيصال المعارف إلى العقل الإنساني، إضافة لأسلوب الأمر بالفعل أو الزجر عنه أو الترغيب إليه أو الترهيب عنه، وغير ذلك ما ذكره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه أن للقرآن أقساماً سبعة، وفي كل واحد منها الشفاء والكفاية. روى في البحار عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ كُلُّ مِنْهَا شَافٍ كَافٍ وَهِيَ أَمْرٌ وَزَجْرٌ وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ وَجَدْلٌ وَمَثَلٌ وَقِصَصٌ»^(١).

وكذلك روي عن ياسر الخادم عن الرضا عليه السلام، أنه سئل عن القرآن فقال: «... أنه كلام الله غير مخلوق حيث ما تكلمت به، وحيث ما قرأت ونطقت فهو كلام وخبر وقصص»^(٢).

فالقصاص هي التي أشار إليها القرآن الكريم في قالب حكايات وآثار الماضين، فقد روى في الكافي عن علي عليه السلام عن أبيه عن عبد الله بن المغيرة عن سماعة بن مهران قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابَهُ وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ

١ - بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٥.

٢ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٨.

فِيهِ خَبْرُكُمْ وَخَبْرُ مَنْ قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَنْ بَعْدَكُمْ وَخَبْرُ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَوْ أَنَّكُمْ مِنْ يُحْبِرِكُمْ عَنْ ذَلِكَ لَتَعَجَبْتُمْ»^(١).

وإذا توقفنا عند الكلمة الواردة في حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما وصف الأقسام بأن كلاً منها (شافٍ كافٍ)، فإننا سوف نثبت دلالة مهمة في القصة كوحدة موضوعية جاءت في آيات القرآن الكريم، وهي أن مطالعة هذه القصص وتتبعها والتفكير فيها والبحث في دالاتها والتدقيق في معطياتها، من شأنه أن يولّد لنا الكثير من الأفكار الشافية لعلل الفرد والمجتمع، أي يمكنها أن تعالج المشكلات الإنسانية والمجتمعية في بعدها الحضاري المعاصر والمستقبل، مهما كانت تلك المشكلات، كما أنها كافية له، تكفيه في مساره المعرفي وبنائه الحضاري بحيث لا يحتاج إلى معرفة دخيلة، وهذا الاستنتاج ليس غريباً على القرآن الكريم، فهو منسجم مع هوية القرآن الكريم في بعد هدايته وبعد عطائه المعرفي، حيث قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

١ - الكافي، ج ٢، ص ٦٠٠.

٢ - سورة الإسراء ٨٢.

أهداف القصص القرآنية

من خلال وعي الوحدة الموضوعية للقصة القرآنية باعتبارها خطاب له خصائصه وغاياته، يمكن للباحث أن يستنبط المزيد من الرؤى التي تخدم تلك الغايات والأهداف، ولقد عمد بعض العلماء إلى كتابة كتب خاصة بقصص القرآن الكريم وقد عدّها بعضهم بحسب ما توصل إلى معرفته ١٧٤ كتاباً، إلا أن أغلبها مفقود أو مخطوط.

ومن كل ذلك نعلم أن ورود القصص في القرآن الكريم وتوصيفها بأنها الحق والأحسن، والإشارة إليها في الروايات، يعني أن لهذا الأسلوب فوائد عديدة، لها دخالة في إيصال الوعي العلمي والصياغة التربوية للإنسان، وقد ذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير عشر فوائد يمكن الاستفادة منها عبر الأسلوب القصصي القرآني، حسب ما توصل إليه من خلال تتبعه لدلالات الآيات والتفكر فيها، وهي تشكل جزءاً من الفوائد والمعطيات التي يمكن للقصص القرآني أن يثريه في عالم المعرفة الإنسانية.

والفوائد التي ذكرها هي كالتالي:

«الفائدة الأولى:

أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتغال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حججهم على المسلمين، قال تعالى: تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا [هود: ٤٩] فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعارضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين.

الفائدة الثانية:

أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتغال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكميلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ

المشرعين، قال تعالى: وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير [آل عمران: ١٤٦] الآية. وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضاً. وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان. وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم . وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله تعالى في قصة أهل الكهف: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً إلى قوله: نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى الآيات فلم يذكر أنهم من أي قوم وفي أي عصر. وكذلك قوله فيها: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة [الكهف: ١٩] فلم يذكر أين مدينة هي لأن موضع العبرة هو انبعاثهم ووصول رسولهم إلى مدينة إلى قوله: وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق [الكهف: ٢١].

الفائدة الثالثة:

ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على

أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى: فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا [النمل: ٥٢] وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

الفائدة الرابعة:

ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى يروعوا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين قال تعالى: فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [الأعراف: ١٧٦] وقال: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب [يوسف: ١١١] وقال: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [الأنبياء: ١٠٥] وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسول كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة.

الفائدة الخامسة:

أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة

وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف، وقد تقدم التنبيه عليه في المقدمة الخامسة فكان من مكملات عجز العرب عن المعارضة.

الفائدة السادسة:

أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاض بأحوال الأمم الماضية وجاهلوا معظمها وجاهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماؤه فأعقبهم ذلك إغراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال مشيرا إلى غفلتهم قبل الإسلام: وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم [إبراهيم : ٤٥] .

الفائدة السابعة:

تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد: وقالوا من أشد منا قوة [فصلت: ١٥] فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة:

أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما سادهم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس والروم، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس، والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم، وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم في رحلاتهم وتجارتهم.

الفائدة التاسعة:

معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء: من الاستعداد والاعتماد سلموا من تسلط غيرهم عليهم. وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير. وكيف ينصرهم الله تعالى كما في قوله: فنأدى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

الفائدة العاشرة:

أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإمام بفوائد المدنية كقوله تعالى: كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله [يوسف: ٧٦] في قراءة من قرأ (دين) بكسر الدال، أي في شرع فرعون يومئذ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق. وقوله: قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده [يوسف: ٧٩] يدل على أن شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل في الاسترقاق، وأن الحر لا يملك إلا بوجه معتبر.

ونعلم من قوله: وابعث في المدائن حاشرين [الشعراء: ٣٦]،

فأرسل فرعون في المدائن حاشرين [الشعراء: ٥٣] أن نظام مصر في زمن موسى إرسال المؤذنين والبريح بالإعلام بالأمر المهمة. ونعلم من قوله: قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة [يوسف: ١٠] أنهم كانوا يعلمون وجود الأجياب في الطرقات وهي آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها. وقول يعقوب: وأخاف أن يأكله الذئب [يوسف: ١٣] أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم^(١).

إن تلك الفوائد العشر التي ذكرها صاحب التحرير والتنوير لم تكن على سبيل الحصر، بل هو ما جادت به قريحة التدبر في آيات القرآن لديه، فقد ذكر العديد من العلماء عدة أهداف وفوائد يمكن أن يسלט عليها ضوء الدراسات، منها الجانب الأدبي والبلاغي، ومنها الجانب الأسلوبي الفني، ومنها الجانب الموضوعي. فالإهتمام بالقصة من كافة جوانبها يمكنه أن يزودنا بمعرفة إضافية ووعي جديد، وهذا ما نقصده من دخالة القصة القرآنية في منحنى علوم القرآن الكريم.

١ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ت: ١٣٩٣هـ، ج ١، ص ٦٥.





القصة القرآنية في بعدها الحضاري

في مجال النظر للقصة القرآنية من زاوية فلسفة التاريخ، فإننا نبحث عن الخصائص التي يمكنها الإندراج تحت هذا العنوان، وهي القصص ذات الطابع الأُمِّي التي تقص علينا تجارب مجتمعات سابقة بيّنت فيها منعطفات ومفاصل غيرت مجرى التاريخ، فالقصة القرآنية أعم من قصص الأمم. ونشير في هذا المقام إلى أنواع القصص القرآنية وصولاً إلى المبتغى، وفي ذات الوقت نستبعد الإشارة إلى بعض أنواع القصص كالإخبار بقصة خلق الله للكون مثلاً، لأنها تخلو من وجود العامل البشري، وتتبعها بلا شك له فوائد في جانب الإيمان والعقيدة، ولكن ليس من جهة تتبع الأثر من خلال التجربة، وكذلك نستبعد عن أمثلتنا القصص الواردة عن المواقف المستقبلية في الجنة والنار ومواقف كل من المؤمنين والمنافقين والمعاندين، لأنها لا ترتبط بالتاريخ.

إن القصة القرآنية كتاريخ تنقسم إلى عدة أقسام من جهة
المادة المؤرخ لها:

القسم الأول: التاريخ الفردي.

وهي قصص أحوال الرجال، وبيان مواقفهم وجهودهم،
فمنها تاريخ الأنبياء والصالحين والصالحات، ومنها تاريخ
الفاستدين والظالمين وأصحاب التصرفات الخاطئة.

فأما القصص التي جاءت عن الرسل كما أشارت الآيات:
﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾^(١)، - فهي تسرد الحكاية
عن الرسل في بعدها الفردي كقدوة في مواصفاته (الخلق
العظيم، الأواه الحليم، والصابر الشاكر، وفي تعاملاته مع
الناس)، وحيناً آخر تسرد قصصهم ضمن التجربة الاجتماعية
الحضارية للأمم السابقة، أي في تعاملهم مع المصلحين، ومع
النعم، ومع الشهوات، ومع الطغاة وما شابه ذلك.

وأما مثال القصص التي أشارت لأفراد فاستدين، كقصة
موقف إبليس من الأمر الإلهي بالسجود لآدم، وفيها بيان

١ - سورة هود ١٢٠.

خاصية الإستكبار عند إبليس والتحدي الذي دخله من خلال توّعه لغواية الإنسان.

قال تعالى عن بعد أن ذكر خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١).

وكما هي الآيات التي نزلت في أبي لهب الذي أمعن في أذية النبي ﷺ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا

حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴿١﴾.

وكقصة أحد الصحابة في عهد النبي ﷺ الذي عبس في وجه السائل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (٢).

ويمكن أن نصنّف هذا القسم من القصص القرآنية بأنه يمثل الوحدة الثقافية التي هي جزء من المجتمع، ويبين الله تعالى من خلاله القيم الحقّة، ويفرق بينها وبين القيم الباطلة، أو الأفكار السقيمة والسلوك الخاطيء.

القسم الثاني: تاريخ الحدث والواقعة.

وهي قصص الوقائع التاريخية المشهودة أو المحاورات المحدودة بين عدة شخصيات، كما نرى في قصة آدم والتي احتوت على عدة أبعاد ووقائع، منها بيان أصل الخلق وعلاقة الملائكة بذلك المخلوق البشري كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ

١ - سورة المسد ١ - ٥.

٢ - سورة عبس ١ - ٤.

نَارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١﴾.

وقصة استخلاف آدم عليه السلام وحوار الملائكة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٢).

وقصة ابني آدم هابيل وقابيل في قصة الإخلاص والتقوى وصراع منشأ الحسد، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ

١ - سورة الحجر ٢٦ - ٢٩.

٢ - سورة البقرة ٣٠ - ٣٣.

الْآخِرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١﴾.

كما يحدثنا القرآن الكريم عن أصحاب الجنة ﴿واضربْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ (٢)، وكحدث الوفاء بالنذر التاريخي الذي جسّد قمة الإيثار والعطاء، في قصة الإمام علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام عندما مرض الإمام الحسن والحسين عليهما السلام: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا. وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (٣)، وكحدث أصحاب الفيل الذين ساق القرآن

١ - سورة المائدة ٢٧ - ٣١.

٢ - سورة الكهف ٣٢.

٣ - سورة الإنسان ٧ - ١٠.

قصتهم في سورة باسم الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ
الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ.
تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾^(١).

وكقصة عزيز أو النبي أرميا الذي رأى بيت المقدس خراباً،
الذي تعجب من كيفية عمارتها بعد دمارها حسب وعد الله له:
﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي
هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ
لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ
إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

وكقصة موسى مع الخضر والتي ابتدأت بقول الله تعالى:
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا

١ - سورة الفيل ١ - ٥.

٢ - سورة البقرة ٢٥٩.

هَذَا نَصَبًا. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا؟^(١)

وهذا القسم من القصص القرآنية، يعبر عن حدث اجتماعي أوسع من حدود الفرد، وله أصداء وتموجات في الواقع، أي أن هذا يشكل جزءاً من الثقافات الاجتماعية السائدة في الجسم الحضاري، ويبين القرآن الكريم من خلالها الأثر الثقافي الكبير لتعاقد الفكرة واتساعها.

القسم الثالث: تاريخ الحضارات.

وهي القصص التي ذكرت الأحوال العامة، والخطوط العريضة لبعض المجتمعات، وما جرى عليها من تحولات حضارية، حيناً نحو التقدم، وحيناً نحو الإنهيار، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾^(٢).

١ - سورة الكهف ٦٠ - ٦٦.

٢ - سورة الأعراف ١٠١.

وقد اختلفت قصص الحضارات التي عبر عنها قرآنيًا بالقرى في بعض الأحيان، فمنها ما اندثر ولم تبق إلا العبرة من أفعالهم، ومنها ما زالت آثاره قائمة، كما في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(١).

وقد كثرت القصص الحضارية في الخطاب القرآني، وتنوعت الألفاظ التي دلت على الحديث عن الحضارة والمجتمع ككيان له روح وله سيورة وله سنن، ومن ذلك الإشارة إلى أسماء الأقوام كما قال تعالى عن عاد وثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٣). و﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٤)، و﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ

١ - سورة هود ١٠٠.

٢ - سورة الحاقة ٤ - ٦.

٣ - سورة الأعراف ٦٥.

٤ - سورة الأعراف ٧٣.

إِلَيْهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

وكما في ذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِإِمَامٍ مُبِينٍ. وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٢). وكأصحاب السبت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣).

وتارة يذكر الخطاب الحضاري للقصص من خلال الإشارة إلى المكان الذي يضم ذلك المجتمع، مثل تعبير (القرية) في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم

١ - سورة الأعراف ٨٥.

٢ - سورة الحجر ٧٨ - ٨٠.

٣ - سورة النساء ٤٧.

مُرْسَلُونَ ﴿١﴾، وتعبير (المدينة) كما في قول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ
 الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا
 مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي
 مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
 إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ
 يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٣﴾، وتعبير (المدائن) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي
 الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٤﴾، وقد تكرر مثل مصطلح (البلدة) و(البلد)
 و(المصر)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ
 الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥﴾،
 ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بُيُوتًا
 وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾.

وتارة يأتي الخطاب القرآني للإشارة للتقصص الحضارية

١ - سورة يس ١٣ - ١٤.

٢ - سورة القصص ١٥.

٣ - سورة الحجر ٦٧.

٤ - سورة الشعراء ٣٦.

٥ - سورة النمل ٩١.

٦ - سورة يونس ٨٧.

بالإشارة إلى التجمع نفسه بلفظ الأمة والأمم والقوم والآباء والناس، ومن أمثلته: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)، و﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾^(٢)، و﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٣).

وكذا بلفظ يشير للحضارة المنجزة مثل قرن، وقرونا، إرم ذات العماد، كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٤)، و﴿إِرم ذات العماد. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(٥).

ومن خلال الإشارة للطبقات المجتمعية، وذكر صفة

١ - سورة البقرة ١٣٤ - ١٤١.

٢ - سورة الأنعام ٤٢.

٣ - سورة الأنبياء ١١.

٤ - سورة الأنعام ٦.

٥ - سورة الفجر ٧ - ٨.

من صفاتها، منها الفئة الرسالية (المؤمنون) (كنتم خير أمة) (العلماء) (أهل الكهف)، ومنها ذكر الفئة المتأمرة، مثل (تسعة رهط)، و(المالئ) و(المفسدون)، وغير ذلك.

وعن النقطة المتقدمة في حياة الأمة الإسلامية، حيث عبّر القرآن الكريم عنها من خلال الصفة العامة التي كانت تقود المجتمع الذي صنع حضارة وغير مجرى التاريخ، بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

فهذا النوع من القصص القرآنية إنما يبيّن ثقافة المجتمعات من خلال التيار الثقافي الجارف الذي استعانت به على حركتها، وبيّن القرآن الآثار التي وقعت على الحضارات جرّاء توجيهها، فبعض ترقى وبعض تسافل.

فهناك تداخل بين الأقسام الثلاثة، تداخل تأثير وتأثر، فقد تكون القصة من خلال فرد إلا أنها تصاغ كثقافة مجتمع، كما في الآيات القرآنية التي نزلت في أبي ابن كعب أحد رؤوس



في المنطق الأممي

النظريات التي تحدّثت عن فلسفة التاريخ جهدت في البحث عن قوانين ثابتة هي عبارة عن حتميات لا يخرج عنها مسار الحضارة والمجتمعات في تقدمها وانهارها أو في تفسير أحوالها، ونحن إذ نتناول المنطق الأممي في قصص القرآن الكريم من أجل الملامسة التطبيقية لفهم سيرورة الحضارات أو المجتمعات، مما يجلي لنا بعض الحقائق القرآنية المستقاة من التدبّر والبحث في آيات القرآن الكريم المختصة في هذا المجال.

وقبل الولوج في البحث نذكر بعض الاتجاهات التي ذكرت حتميات التاريخ كما ذكرها المرجع المدرسي في كتابه القيم (المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه)، حيث ذكر تلك الحتميات باقتضاب كالتالي:

أ- حتمية دورية حيث تقوم فلسفة التاريخ (عند هيردر) على القول بأننا لا بد أن ندرس الماضي، لنفهم مشاكل اليوم

والغد. وقد شابه ابن خلدون، في تشبيه الجماعات الإنسانية بالمخلوقات الحية، وقال: بأن لها هي الأخرى أعماراً من الطفولة والفتوة والشيخوخة، وقد حاول أن يثبت في كتابه المسمى (آراء عن فلسفة التاريخ الإنسانية): ان التاريخ، يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الأشياء والطبيعة، وقد قال: بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد^(١).

ب- حتمية مثالية غيبية، يقول هيغل (الذي يعتبر رائد الفلسفة المثالية الحديثة والحتمية الدينية التاريخية): ان التاريخ- على هذا الاعتبار- إن هو الا عملية طويلة مقدره بقدر يأخذ فيها كل حادث أو طرف مكانه ومبرراته، على ضوء مسار التاريخ في مجموعة. وهنا يتفق هيغل مع (رانكة) الذي قال: ان الدول أفكار الله، ويريد بذلك: أنها تقوم بتقدير الله سبحانه^(٢).

ج- مادية طبيعية، وأصحاب هذا الرأي: جعلوا رأيهم الحديث عن العوامل الداخلية، التي تدفع الإنسان، أو الجماعات البشرية، إلى الحركة. وكلها- في نظرهم- عوامل

١- عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، عن كلمة الدكتور حسين مؤنس، ص ٧٦.

٢- المصدر، ص ٨١.

مادية أي أنهم نظروا إلى التاريخ البشري وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي^(١). ومن هؤلاء الناس (كارل ماركس) صاحب الحتمية، التاريخية الاقتصادية حيث (يرى ماركس: ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنساني، وهذه القوانين حتمية أي أنها تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه، وإذا أدرك الإنسان هذه القوانين استطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية .. ويقول: ان الأحوال والأوضاع الاقتصادية لأي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها، وكل مظاهر حضارتها فإذا أردنا ان نفهم نظام أي مجتمع، ونظامه السياسي أو حتى عقيدته الدينية، وإنتاجه الفني، والفكري، فلننظر أولاً إلى نظامه الاقتصادي، وأساس النظام الاقتصادي هو الإنتاج، ونوعه وأساليبه، وطريقة استعمال أو توزيع ثمراته، والإنتاج نفسه سواء كان يدويا بدائياً أو آلياً متطوراً لا يظل - دائماً - على مستوى واحد، وأسلوب واحد، فهو يتطور دائماً»^(٢).

١ - المصدر، ص ٨٢.

٢ - المنطق الإسلامي: السيد محمد تقي المدرسي، ص ٥٦٦.

حتميات التاريخ: رؤية قرآنية

إن كل من صاغ نظرية في مجال التاريخ إنما انطلق من النظرية المعرفية التي يتبناها، لذا فإنه من المؤكد أننا سوف ننطلق من كتاب الله القرآن الكريم لفهم ملامح النظرة للتاريخ، باعتباره كتاب حق ولم يدخله الشك، ولا يعني ذلك إلغاء كافة الجهود التي اعتمدت على مطالعة تاريخ الأمم وتحليلها ومحاولة استخراج قوانين ورؤى في مجال صيرورة التاريخ، خصوصاً أن بعض من عمل بتجرّد في مجال عرض التاريخ ودراسته بحيث تكون أحداثه ميداناً معرفياً يستقي منه الأفكار أو يستل منه العبر، قد اهتدى لرؤى صائبة وتستحق التقدير، كما فعل توينبي مثلاً.

أما من انطلق من الرؤية المعرفية المحددة سلفاً كالماركسية والمادية النفعية، فإنها لن تكون دراسات منصفة إلا عند المتبني للأسس المعرفية الخاصة بها، كما أننا في البحث عن ملامح نظرية للتاريخ لن نخرج من ذلك الإطار والتصنيف، لأننا أصحاب رؤية معرفية اعتبرت القرآن الكريم هو الحق الذي ينبغي أن نلجأ إليه في فهم الكون والحياة والتاريخ، ولذا فإن إثبات الطريق المعرفي ومصادقته لن يكون محوراً في بحثنا، فهو خطاب

خاص لمن يؤمن بالقرآن الكريم كتاباً سهاوياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما الآخر من خارج هذه الدائرة فهو خطاب له بنسبة ما، تلك النسبة يمكنها أن تحقق له غاية التعرّف على نمط التفكير الإسلامي من جهة، ويمكنها أن تفهم بطرق عقلانية من شأنها أن تسد نقصاً أو تعدل معوجاً في النظريات المادية والتأملية وحتى الغيبية المجردة.

السنن الإلهية التاريخية والإرادة

القرآن الكريم من خلال السرد القصصي الذي دعا الإنسان إلى أن ينظر للتاريخ ويعتبر منه، لم يضع له قانوناً جامداً كما في القانون الطبيعي، بل بيّن له القانون مع ما يحمل من معاني ومحتويات قد جرت على أقوام توفّرت فيهم شروط معنوية أو مادية، فاستحقوا المصير الذي وقع عليهم، سواء التقدّم والنصر والغنى أو الإنهيار التراجع والهزيمة والفقر وغير ذلك، ومن هنا ففهم السنن الإلهية ينبغي أن يفهم بناء على معطيات الآيات القرآنية العديدة التي تناولت الموضوع ليخرج بنتيجة متكاملة، فالإيمان بالغيب وبأن السنة من الله تعالى لا يعني ذلك أننا نلغي إرادة الإنسان وفعله، ففهم السنة كعامل مادي جامد لا يمكن

أن يتغير، هو الخطأ الذي وقع فيه بعض أصحاب التفسير الغيبي للتاريخ، وأصبحوا محل نقد بل واستهزاء من الآخرين.

والتغير في السنة التاريخية لا نعني به تغير السنة ذاتها أو تحولها، لأن الآيات القرآنية أشارت بوضوح لهذا الجانب، فهي ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(١)، وإنما التغير في الإستحقاق لهذه السنة أو تلك، فيمكننا أن نقول أن التغير هو في تموضع الإنسان أو المجتمع ليكون مثلاً أو مستحقاً لهذه السنة أو تلك.

وفي هذا المجال يقول السيد المدرسي: أن «القانون التاريخي هو في الواقع قانون اجتماعي إنساني، والقانون الاجتماعي ليس فيه حتمية القانون الطبيعي، بل فيه نسبة محتومة من احتمال التحدي، من قبل الإنسان، الذي يتميز بالحرية في تصرفاته. ولذلك فالقانون لا يبحث عن (العلة)، بل عن (المقتضى) والذي يعني زيادة نسبة الاحتمالات في جانب، ضد جانب آخر. وبتعبير آخر: وجود ظروف ضاغطة تهيئ في جانب، ضد جانب آخر. وبتعبير آخر: فوجود طبقية في المجتمع تهيئ الظروف لاختيار

الطبقة المقهورة المستضعفة الثورة ضد الطبقة القاهرة الظالمة ..
لا أنها تحتم عليهم، بل لأن الحتمية لا تصدق باستمرار.

من هنا نعلم أن علينا ان نفتش عن سنن التاريخ ولكن مع
المحافظة على نسبة التحدي، التي قد توجد في الإنسان باتجاه
معاكس للسنة»^(١).

ويقول السيد محمد الشيرازي في كتابه فلسفة التاريخ:
«القرآن الكريم تارة ينسب السنة إلى الله سبحانه وتعالى، وطوراً
ينسبها إلى الإنسان، وقد ورد ذكر السنة في القرآن بألفاظ متعددة،
فتارة يقول تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ)، وطوراً (سُنَّتِنَا)، ومرة يأتي الخطاب
بصيغة ﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾^(٢)، ومرة أخرى
يأتي الخطاب على صيغة ﴿سُنَنِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٣)، للدلالة
على أن الله سبحانه تعالى لا كيفية خاصة له في الاجتماعات
﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٤)، ومعنى

١ - المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، السيد المدرسي، ص ٥٧١.

٢ - سورة الإسراء ٧٧.

٣ - سورة النساء ٢٦.

٤ - سورة فاطر ٤٣.

الكلمتين، أن سنة الله في النار هي الحرارة فلا تتبدل إلى البرودة، كما أن الحرارة لا تتحوّل من النار إلى الماء، وهكذا.

هذا بالنسبة إلى جانب الفاعل، وكذلك بالنسبة إلى جانب القابل، لأن السنة لا بد أن تكون بين فاعل وقابل، سواء كان القابل إنساناً أو نباتاً أو حيواناً أو جماداً أو نحو ذلك.

ويمكن أن تكون السنة سنة أولية، أو تكون ثانوية، وقد تكون ثالثة ورابعة، إلى العاشرية، أو أكثر من ذلك، أي أنها تكون معطياتها حسب تعامل الإنسان معها، كما نشاهد أن سنة الله سبحانه وتعالى هي الانتصار بالنسبة إلى من أعدّ بمختلف الأسباب.

فالنصر هو حليف الإنسان في نهاية المطاف، كما أن الإنسان قد ينهزم في نهاية سلسلة من الأحداث، سواء كان هذا الانتصار أو الانهزام مادياً أو معنوياً، ولا فرق بينها سواء كان المنتصر أو المنهزم من أصحاب الحق أو أصحاب الباطل. وقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١)، فمن المحتمل أن يكون أهل الحق أذلة لعدم توفر الأسباب، إما لأنهم لم يهيئوا الأسباب بالشكل المطلوب، أو أنهم أخذوا بالأسباب لكنهم لم يكونوا

من تحدّث عنهم القرآن الكريم ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) ﴿٢﴾.

إن عدم فهم موضعية إرادة الإنسان في التأثير في التاريخ أو علاقته بالسنة الإلهية أوقع الكثير من التفسيرات التاريخية في خطأ كبير حتى أصبح في مرمى النقد الموجه للتفكير الديني، وكان ممن عرض مثل تلك الأفهام الخاطئة الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة)، الذي ذكر أن المؤرخين المسلمين كان تفكيرهم كان يدور حول أن التاريخ له مسار محدد من قبل الله ينتهي في نهاية المطاف إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن للبشر مساراً انتهى به إلى المرحلة التاريخية التي بعث فيها النبي محمد ﷺ، وبعد ذلك العصر فإن البشر عاجزون عن التزام الصراط القويم كما كان سلفهم، وذلك لأن الله قدّر لهم طرقهم في علمه، ففهموا من ذلك أن القضاء والقدر هي مسألة تسلب الإنسان إرادته فمهما عمل فإن التاريخ ماضٍ في سبيل مقدّر سينتهي إلى نهاية محدّدة في علم الله تعالى.

١ - سورة البقرة ٢٤٩

٢ - فلسفة التاريخ، دراسة تحليلية في المناهج والسلوك، آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي، ص ٢٨٠

كما أن محمد شحرور وجه نقداً للمؤرخين المسلمين في كتابه (قصص القرآن)، لا مجال لذكره حفظاً لسير البحث، ولكن النقد الموجه من قبل هؤلاء هو من جهة التزام المؤرخ بالسنة وابتعاده عن التفكير، وكانوا يرون أن أعمال الفكر هو الذي يمكن الإنسان من فهم التاريخ وسيرورته، إلا أن الخطأ الذي وقع فيه أولئك المؤرخين هو في الفهم الخاطئ للدين والفهم الخاطئ لنصوص الدين، خصوصاً أن توجيههم للنقد كان لعلماء المذهب السني.

ويمكن أن نرى مثل تلك الآثار السلبية من التفكير في الجانب الشيعي أيضاً، ففي الجانب الشيعي نجد أن هناك من فهم التاريخ كخط حتمي لا بد أن يستسلم له المرء، قد يظهر ذلك في فهم دور الإنسان المسلم في عصر غيبة الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف)، فيتجه الفهم للأخذ بروايات تغلب حالة الانتظار كحالة سكون واستسلام لكل ما يقع على الإنسان بحيث لا يسعى إلى أي تغيير أو مطالبة بتغيير، بل وصل بالبعض إلى الاعتقاد بضرورة التسليم لحكام الجور وعقد البيعة لهم، والأمثلة لذلك عديدة، إلا أن كتاب (أقوال الأعلام في

لزوم السلم وحرمة القيام) لمحمد علي العربي، مثال صارخ في عدم وعي السنن القرآنية ووعي التاريخ بل ووعي الدين.

ونحن إنما أشرنا لهذه الرؤى إشارة عابرة دون مناقشتهم وعرض كلامهم، لبيان أن هناك اتجاهات في الوسط الديني لم تع حركة التاريخ بشكل صحيح، والمشكلة الأساس هي في البعد عن محكمات الدين وآيات الكتاب الحكيم التي تبين لنا الأسس العامة والمحاوور التي يمكن أن تعتمد في التفكير الديني، ثم تأتي مرحلة فهم بعض الأخبار والروايات المتشابهة بناء على فهم الأصل والمحكم، فيظهر من خلال ذلك أن بعض الروايات إنما هي ليست من روايات الأصول بل من روايات الفروع والمتغيرات، والتي لا بد من إرجاعها إلى روايات أخرى هي الأم وهي المحكمات، كما تعود الفروع إلى أصولها، وقد أشار أهل البيت عليهم السلام إلى أن في كلامهم المحكم والمتشابه كما في محكم القرآن ومتشابهه، ولا بد من رد مشابهاها إلى محكمها، وقد أوضحوا أن عليهم عليهم السلام إلقاء الأصول وعلينا التفرع.

ومن هنا فإن القصص القرآنية إنما تعطينا سنناً قد جرت على تلك الأمم السابقة لما استحقوا أن تقع عليهم، وعندما

أردنا الاستفادة منها في وعي الواقع أو معرفة المستقبل، فلا بد أن نضع مسألة إرادة الإنسان واختياره ضمن حسابات السنة التاريخية كطرف آخر من تحقق تلك السنة.

وقد وضع السيد المدرسي بعض حتميات التاريخ التي تبين دور الإرادة البشرية في تحديد مساره، ونذكرها هنا لمزيد من الفائدة:

يذكر سماحة المرجع المدرسي (دام ظله): أن هناك عدة حتميات هي:

١ - حتمية الحرية البشرية، التي لا يمكن أن تموت رغم كل ضغوط التاريخ عليها، وهذا ما تحدثنا عنه - سلفاً - والقرآن الحكيم يذكرنا في آياته، بهذه الحرية في مناسبات، مرة حين يتحدث عن أفراد تحدوا واقع أمتهم الفاسد، وتطلعوا إلى الأمام، أولئك الأبطال استثمروا حريتهم وخرجوا من قوقعة الظروف إلى رحاب الإنسانية.

فقد قال ربنا: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنٍ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾^(١).

ولم يقبل ربنا تبرير الظالمين أنفسهم بأنهم كانوا مستضعفين، بل قال لهم (كما جاء في القرآن): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وقال القرآن للمسلمين بصراحة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ولولا الحرية لما تقدمت البشرية بوحدة واحدة، ولما كانت ثورات تقدمية ولا إبداع ولا مبادهة.

إن ثورة الإنسان هي استثمار لحرية. ضد أفكار ونظم (وحتى مات سائدة!!) وهي بذلك تحد لضغط الظروف، وهي دليل الحرية.

١ - سورة النساء ٩٧

٢ - سورة آل عمران ١٣٩ - ١٤٠

٢- حتمية الكسب والجزاء. والكسب والجزاء هما معا محور (الحق والحرية) في الحياة، الحرية في أن تتخذ قراراً. والحق، هو أن تتلقى جزاء قرارك ان خيراً فخير وإن شراً فشر. يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى. أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾^(١).

كل شخص (حر) في أن يتخذ موقفاً (وحتى لو لم يتخذ موقفاً في الحياة فإن عدم اتخاذه الموقف هو بذاته موقف اختاره بحريته)، ولكن الحق هو أن يجزى بما قام به. وحين تتراكم أعمال الناس، ومكاسبهم الخيرة، فإن حتمية سنة الحق تقضي فيهم، بتفجير حضارة تتناسب ومدى ما قدموه من عمل خير. بينما يقتضي الحق، وسنة الحتمية في الحياة، إنه إذا تراكمت مكتسبات الأفراد السيئة، انفجرت فيهم بشكل مآسي مدمرة، تنهي حضارتهم، ويرثها الآخرون، بجهودهم، ومساعدتهم. وهذه الحتمية تقضي بعودة الإنسان، إلى الحق مكرها إذا لم يعد إليه طوعاً. والتاريخ انما هو مجموعة مسيرات من الحق إلى الباطل،

بحرية الإنسان وسوء اختياره، من الباطل إلى الحق، بحرية الإنسان وحسن اختياره، أو رغما عليه وكرها. ذلك أن الحق هو سنة الحياة، التي لن تجد لها تديلاً ولن تجد لها تحويلاً.

٣- حدود الحرية وإن كانت الحرية ممنوحة للإنسان ليختار طريقه، فإن هذه الحرية محددة في إطار معين، وضمن فترة محددة وذلك:

حين تظلم فئة فئة أخرى، وتسلب منها حقها، وتسرق حريتها، وتنتشر الطبقية في الأمة، فإن الفئة المحرومة انما سحقت بحريتها، وعدم دفاعها عن ذاتها. ولكن الفئة الظالمة لن تبقى تستمر في استغلال حريتها المحدودة إذ الله لم يهملها بل انه أمهلها فقط، لذلك فإنه يتدخل غيبياً، لينهي الباطل ويعيد الحق. يقول ربنا تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذَّبِحْ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئمةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١﴾.

هذه خلاصة القصة؛ هناك فرعون اختار طريق الباطل (والظلم) ولكن لم تستمر لفرعون حرите بل تدخلت سنة الله التي أرادت (في مواجهة إرادة فرعون) أن تري فرعون أن الطائفة المستضعفة قادرة على استرجاع حقوقها.

هذه فلسفة صراع الطبقات، حيث ان الفئة المغلوبة المستغلة تقاوم الفئة (التي غالبا ما يمثلها فرد) الظلمة المستغلة، والنهاية ستكون انتصار تلك الفئة على هذه لأنها خالفت سنة الحق، فأعيدت إليه كرها»^(٢).

دور العقل في فهم القصص القرآنية

كما قلنا سلفاً أن القصص القرآنية لم تأت للإمتاع النفسي، إنما هي أحداث محمّلة ببصائر للحياة، وبالتالي فإن أعمال العقل في وعي الحقائق المثبوتة فيها يُعدّ من الضروريات، وقد قال تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبَكَ لِغَيْرِكُمْ وَأَلْهِنِّي مِنَ الْغَيْرِ﴾^(٣)، وبشكل عام

١ - سورة القصص ٣ - ٦ .

٢ - المنطق الإسلامي، المرجع المدرسي، ص ٥٧٢ .

٣ - سورة الأعراف ١٧٦ .

عند دراسة الحضارات وتقصّي أحوال الأمم المختلفة، يحتاج الباحث إلى التحقق وربط الأحداث ببعضها، ليعي الأسباب التي أدّت بهذه الحضارة أو تلك إلى مآلها الحاضر، وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالسير في الأرض، المتبوع بالنظر والتفكير، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١)، ولا شك أن الله تعالى يترك الآيات والآثار الدالة على الحقائق، كما في حديث القرآن عن العذاب الذي حل بقوم لوط عندما فسقوا عن أمر الله واتبعوا الشهوات التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، قال الله عز وجل عنها: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢)، ولذا فإن الله يبيّن ذلك لنا عن طريق معاتبة الذين لا يعملون العقل في وعي مسار الحضارات السابقة، مما أدى بهم إلى إنكار الرسالات كما أنكرها من قبلهم، وعادة تكون

١ - سورة آل عمران ١٣٧.

٢ - سورة العنكبوت ٣٣ - ٣٥.

بنفس الحجج وذات التبريرات، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وفي القصص القرآنية تنتفي أبعاد التحقق من صحة الواقعة، وينتفي البحث عن الآثار التي تشير إلى بقايا الحضارات التي تدل عليها أو على أفعالها أو إنجازاتها، لأن قصص القرآن حق من عند الحق، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾^(٢)، إلا أن العقل لا ينحصر في أبعاد البحث عن آثار الحضارات وقصصها الواقعية، بل لا بد من البحث والتدبر في الحوادث والقصص التي يسردها لنا القرآن الكريم، ووعي الأحداث بشكل صحيح، ومن ثم ربط النتائج بأسبابها الواقعية، ويمكن أن نشير مجرد إشارة إلى إتجاهين في أعمال العقل في حقل التفكير في القصص القرآنية لاستنباط السنن الحاكمة وآثار الأنماط المختلفة من الأفعال:

١ - سورة يوسف ١٠٩.

٢ - سورة الكهف ١٣.

الأول: اتجاه وعي الحدث نفسه، أي وعي الحدث بوصفه فعلاً بشرياً منطلقاً من إرادة وتصميم، ووعي للآثار المترتبة عليه، وفي آيات القرآن الكريم، تارة يأتي ذكر العبرة من الحدث مباشرة بشكل جلي وصریح، وتارة تتم الإشارة إليها إشارة، مما يحتاج إلى تدبّر لاستجلاء العبرة، وهذا ما يؤدي إلى صياغة السنن التاريخية.

الثاني: اتجاه وعي الواقع المعاش المعاصر، ومن ثم تطبيق السنّة التاريخية عليه، والبعد التطبيقي هذا يحتاج إلى البعد العقلي لتمييز سنّة عن سنّة، وواقع عن واقع، فقد يكون الواقع ملتبساً، يحمل شكلاً مغايراً للمضمون فلا تجري عليه السنّة، وقد تكون هناك سنّة تاريخية مرتبطة بالواقع إلا أن هنالك سنّة أخرى حاکمة عليها، لذا لا نجد الأثر فاعلاً في الواقع، وهذا الاتجاه يتطلّب التشخيص الدقيق لما يداخله من تفرّعات عديدة، وتمييز موضع الرحمة من موضع النقمة، وموضع العقاب من موضع الفتنة والابتلاء، كما يتوجّب الإنفتاح على أبعاد مهمة مرتبطة بالاحتمالات الواقعية مثل (الصبر، حسن الظن، الإجتهد، الصدق، ومقابلاتها كالجزع واليأس والإستسلام والتشاؤم

وغير ذلك)، ودور العقل في مثل التفرعات التطبيقية واسع يفتح منه ألف باب من العناوين والمصاديق.

موانع جريان السنّة

ومما يرتبط بعمل العقل في وعي سنن التاريخ في القصص القرآنية، هو معرفة أن السنن التاريخية هي سنن اجتماعية، وليست قوالب جامدة، ولا تجري قوانينها كما تجري القوانين على الجمادات والطبيعات كما ذكرنا آنفاً، بل تتداخل فيها الكثير من المؤثرات التي قد تغيّر استحقاق المجتمع لسنة من السنن دون سنة أخرى، أو تكون داعياً لتخفيف وطأة نتائج الأفعال أو زيادتها، كما نجد دخالة الرحمة الإلهية في مصائر الأمم، حيث يعطيهم الله تعالى المهلة كما في قوله تعالى: ﴿وَرُبُّكَ الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً. وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾^(١)، كما أن التفكير يقتضي تشريح الفعل الواقعي والنظر في الدوافع الحقيقية، كما لو كانت عن إرادة وفهم، أم عن جهالة أو تأثيرات الإفتتان بالواقع، كما في قول الله عز شأنه:

١ - سورة الكهف ٥٨ - ٥٩.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، فهناك عدة موانع قد تمنع نزول العذاب أو أخذ الإنسان بآثار أعماله، كما لو كانوا يستغفرون، أو ما من الله به على الأمة الإسلامية من كرامة وجود شخص النبي الأكرم فيها (حيًا أو ميتًا) حيث أن عذاب الإستئصال لا يصيبها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٢)، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون داعياً للتواني والتساهل في الآثار الفعلية للأمم، لأن العاقبة في الآخرة هي الأهم، كما أن حرمان الآثار الطيبة في الحياة مسألة مهمة تستوجب الإعتبار بقصص الماضين، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِرَأْسِ الْأُولَى النَّهْيِ. وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامًا وَاجِلٌ مُمْسَمًّى﴾^(٣).

١ - سورة الأنعام ٥٤.

٢ - سورة الأنفال ٣٢ - ٣٣.

٣ - سورة طه ١٢٨ - ١٢٩.

تشكل المنطق الإيمى

هل للأمم منطق خاص وبالتالي مسار عام؟ مالذي نستخلصه من القصص القرآنية في هذا البعد المهم، والمتعلق بفلسفة التاريخ؟

لاشك أن المنحى السننى هو الذى يجرى فى التاريخ، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١)، والأمور تجري وفقاً لأسبابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآيِنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾^(٢)، وسنة التغيير إنما هي رهينة لإرادة الإنسان وفعله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣). فما وقع من نتائج سببها تأثير (الفعل) الإنسانى، من الإستكبار ومحاربة الحق، والإفساد فى الأرض، وظلم العباد، بل وظلم النفس، والإعراض عن آيات الله، وغير ذلك، فالسنن الإلهية واسعة، وهي عائدة على فاعلها، ولكن فى القصص القرآنية نوع

١ - سورة الأحزاب ٦٢.

٢ - سورة الكهف ٨٤ - ٨٥.

٣ - سورة الرعد ١١.

خاص من الأفعال، وهو الفعل (الحضاري)، فلقد أرجعت الآيات المسببات في حركة التاريخ (تقدماً أو سقوطاً) إلى نوع المنطق السائد في تلك المجتمعات، فكانت الحكاية عن المجتمع كشخصية اعتبارية له منطق وله مواقف وله روح وله أجل، وكمثال في القصة الحضارية لقوم (ثمود) التي أرسل الله إليهم النبي صالحاً، وقد ذكرت في القرآن الكريم في إحدى عشر سورة.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾^(١).

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾^(٢).

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾^(٣).

فثمود التي أخذها الله تعالى بعقاب الإبادة ودمّر حضارتهم، نتيجة لما فعلوه، كان لهم منطق (حاكم) ومؤثر في حركتهم الحضارية، حيث ان الآثار الكارثية على حضارتهم لم تأت لهم قبل إرسال صالح لهم، فقد كانوا يعيشون عيشاً رغيداً، وقد وصلت حضارتهم إلى تقدّم كبير في مجال العمران ورفاه العيش

١ - سورة الشعراء ١٥٣ - ١٨٥.

٢ - سورة النمل ٤٧.

٣ - سورة القمر ٢٤.

والموائمة مع الطبيعة، ومع فسادهم لم تتدهور حضارتهم، إلا بعد التكذيب الصريح والتحدّي والعناد والمكر الذي استحکم، فأصبح لديهم منطق سائد يسيّر حركة المجتمع برمته.

فنحن أمام المعادلة التالية: (قوم) حضارة + تكذيب وتحدي ومكر (كثقافة حاكمة) = الإنهيار

ويمكن البحث عن شروط الإستحقاق من ناحية نوع التكذيب والمكر الذي ينتج نوع الجزاء وهو السقوط إلى الهاوية، ويمكن البحث في صدق تلك الصفة على (الأمة الحضارة) كي تكون النتيجة شاملة، أي أننا أمام ضرورة البحث عن ذلك المنطق الأُمِّي والحضاري الذي يمكننا ان نصف من خلاله أمة ما، بأنها تحمل هذا المنطق أو ذاك.

ولعل النظريات التي بحثت في فلسفة التاريخ عن نهضة الأمم والجانب المحرك فيها، قد أوعز بعضها المنطق الحضاري إلى الكبراء والرؤساء الذين يمثلون مجتمعاتهم، وبعض أشار للشخصية الحقيقية للمجتمع وأصالته دون تأثير الفرد، وبعض أجاب بتأثير الأفراد كمجموع كلي، مرجعين العامل المحرك للفرد حسب المعتقدات الفكرية التي يؤمنون بها، كعامل المال، أو الجنس، أو النمط الحتمي الأعم.

وحول هذه الروح وتحت عنوان مسار التاريخ تحدث السيد المدرسي في كتابه القيم (المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه) عن رابط المنطق للحضارات أو روح الحضارات والمجتمعات بالتالي: « لكل مجموعة أحداث تاريخية، صبغة خاصة، تجعلها وكأنها حدث واحد فقط، له بداية ونهاية، ويمكن أن نشرحها بشكل خاص ومتميز لها^(١) .

وهذا يعني عدة أمور:

١- إن لكل مجموعة أحداث تاريخية، صلة داخلية تربطها ببعضها، وعلينا أن نتوسع في دراسة هذه المجموعة، حتى نصل إلى تلك الصلة الداخلية، التي قد نسميها مجازاً بروح المجموعة. إنه- لكي نفهم تاريخ حضارة ما- علينا أولاً أن نقرأ عنها في توسع، حتى نهتدي إلى روحها، ولبابها وهذا هو مفتاح فهمها^(٢) .

١- وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة حينما قسم التاريخ أما وجعل لكل أمة بداية ونهاية فجاء فيه مثلاً: (إلى أجل مسمى ومتعناهم إلى حين).

٢- عن هذه الروح يقول اشبنلجر: إن الفترة الأولى من حياة، أي حضارة، تشبه العصور الوسطى، الأوروبية، وهي- في نظره- مرحلة طفولة أو صبوة لم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه إلى قواها، ثم تبدأ- بعد ذلك- مرحلة الضعف والهبوط وإننا نستطيع أن نستشف روح كل حضارة في معاملات الناس في نطاق أي حضارة في كيانها من قوة، وما تمر فيه من مراحل العمر. عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، ص ١٠٤٠. (هامش كتاب المنطق الإسلامي).

٢- أهم شيء رابط بين أحداث هذه الفترة، هي سيادة فكرة معينة لا تكون الرابطة- بين الأفراد والطبقات الموجودة- داخل الأمة فقط، بل- وأيضا- تكون المفتاح لفهم الأحداث التي تقع ضمن الفترة. يقول توينبي: إن النموذج العادي للتفكك الاجتماعي من الحضارات، يأخذ صورة انشقاق في صفوف الجماعة، وظهور الطبقة العاملة إلى الميدان، وتحديها للقوة الحاكمة، ويقترن ذلك بعجز هذه الطبقة (الحاكمة) عن الثبات، لذلك التحدي، بسبب التصدع في بنائها، وعجزها عن الاستجابة- ابداعيا- للتحدي، وشيئا فشيئا، تفقد القيادة سيادتها، وتميل الأمور إلى الغموض^(١).

ولكن هل ظهور الطبقة العاملة، هي الميزة الوحيدة للتصدع الحضاري، كما حدث في روسيا القيصرية؟ أم أن هناك تصدعا من نوع آخر، يحدث بين فئات متناحرة، لكل واحد منها مصالحها، وحقوقها، وطبقاتها، وقيادتها، كالتي حدثت في الأمة الإسلامية بعد أفول نجم حضارتها حيث أصبحت، كما قال الشاعر:

وتفرقوا شيعا، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر!

١- المصدر، ص ١٠٦.

وقد تبقى الوحدة قائمة، ولكن وحدة جمود فتأسن الأمة ويتفشى فيها اللامبالاة والميوعة و .. و .. حتى يأتيها- من الخارج- من يطلق عليها رصاصة الرحمة، وتنتهي، كما حدث في الامبراطورية الفارسية، بعد ظهور الإسلام.

٣- وهذه الروح الحضارية، تبدأ من نقطة زمانية ومكانية معينة، وتندفع في كل إتجاه- عمقا وانتشارا- ثم تبدأ بالتلاشي والضعف حتى تنطفئ شعلتها وتبرد حرارتها، إلا إذا وجدت فكرة أخرى، أو وجد من يجدد الفكرة الأولى.

والاندفاع الأولى تنطلق من أحد عاملين:

أ- من ظهور عامل فجائي غيبي. (ظهور نبي مبعوث من الله).

ب- من تحدي أمة قوية لهذه الأمة، أو احتكاكها بها. وبعد وجود أحد العاملين، تنبعث في الأمة روح جديدة، أهم ميزاتها: الثقة بالذات، وبالقدرات والمواهب الكامنة في الإنسان كإنسان، وهذه الثقة لا تحدث في الأمة إلا بعد القدرة على تحدي حواجز الخوف، والتهيب، وهذه القدرة مرتبطة- بدورها- بوجود تطلع في الأمة (أو في الأفراد) حيث إن هذا التطلع يجعل الإنسان،

يرتفع إلى مستوى رفيع، فيكتشف عن طريق الممارسة الجهادية - من أجل الوصول إلى أهدافه التي يتطلع إليها - يكتشف مواهبه وقدراته. وقد أشار القرآن الحكيم إلى هذه الحقيقة، حين أمر الله بالتوكل عليه. وقد تنبه إلى هذه الحقيقة، المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون، حين أشار في تحليله إلى أن الأمم في صعودها تتطلع نفوس أهلها إلى عظام الأمور، وتستسهل الصعاب، وفي أيام هبوطها تسقط هم أهلها، وتصعب عليهم الصغائر^(١).

ودور الإيمان بالله - دور أساسي في بناء كبرى حضارات الأرض - لأنه كان يعطي الإنسان، تطلعا إلى أعلى كمال في الكون، وهو الله.

بيد أن هذا التطلع لا يدوم في الأمة طويلاً، إنه يبدأ في الضعف والانحلال إلى أن يجبو تماماً فتنتهي الأمة انتهاءً عملياً. ولأن التطلع يعطي الأفراد أهدافاً محددة، فهم يملكون بصيرة في الحياة، يعرفون بالضبط ماذا عليهم أن يعملوا؟ كما يعرفون من هم أعداءهم؟ ومن هم أصدقاءهم؟ وما هي مصالحهم؟ وما هي ضدها؟ ولكن، حين يضعف تطلعهم

١ - المصدر، ص ١٠٢.

تضعف بصيرتهم، فيتخبطون خبط عشواء، ويختلفون ويتناحرون، ثم ينطوون على ذاتهم، في غيبوبة تشبه غيبوبة الموت، اللهم إلا إذا تحركت إرادتهم الحرة، وأخذوا يقاومون ضعفهم، بتجديد تطلعهم، فتعتمد قدرتهم أو ضعفهم آنئذ بمدى إرادتهم^(١).

مثال تطبيقي

عبر قراءة الآيات التي تحدثت عن القصة الحضارية لقوم ثمود، قد وجدنا المنطقَ الجمعي، والإشارة إلى الحضارة ككل، كما أننا نجد الآيات تعبر بتعبيرات مختلفة وإشارات متعددة في نسبة الفعل للفاعل، وهي كالتالي:

١ - ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

٢ - ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٣).

١ - المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، ص ٥٨٢.

٢ - سورة الأعراف ٧٧.

٣ - سورة النمل ٤٨.

٣- ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾^(١).

من خلال هذه الإشارات القرآنية، يمكننا القول أن المنطق الأُمِّي يمر عبر ثلاث دوائر من التأثير، ابتداءً بالعقل المدبّر (الفرد)، ثم الدائرة الأوسع وهم الجماعة المتعاضدة (النخبة)، ثم دائرة المجتمع المتأثر أو الصامت أو الراضي بالفعل (المجتمع)، فعبّر هذه التمرّجات ينتج المنطق الأُمِّي المسؤول عن الحركة الكلية للحضارات، وبالتالي يكون سبباً في تقدمها نحو معارج الكمال أو عاملاً من عوامل التقهقر والإنهيار.

الدوائر الثلاث للتأثير

ومن هنا يمكن فهم المصطلحات التالية: (فعل المفسد)، و(المعين على الإفساد)، و(الراضي به)، كما هو في النصوص والأدبيات الدينية، فعندما يخلق التمرّج الحضاري الذي يحمل في طياته منطقياً موحداً متفقاً على فكرة ما، فإن سيرورة المجتمع تبدو في حركة متسارعة وملحوظة، كما كانت في تاريخ الحضارات التي حكاها القرآن الكريم، فإن كانت الفكرة صالحة ومتوافقة

١ - سورة القمر ٢٩.

مع الإرادة الإلهية، فإن نتائجها ستصب في بناء الحضارة، كما كان المجتمع الإيماني في الصدر الأول من تاريخ الإسلام حيث كانوا خير أمة أخرجت للناس عبر إلتزامهم وطاعتهم بالتوجيهات النبوية المباركة، فتسارعت تيرة النهضة وقام مجتمع إسلامي في غضون فترة وجيزة. وعندما تكون الفكرة فاسدة، فإن الآثار التراجعية والتقهقرية على الحضارة ستكون واضحة أيضاً، كما حصل في الفترة التي تسلمها يزيد بن معاوية (لعنه الله) الذي حمل راية الظلم والفساد، ووجد نخبة يطيعونه، ومجتمعاً منقاداً، فحدثت أكبر فاجعة في التاريخ، وحينها بدأ العد التنازلي لدولة بني أمية وأزيلت من الوجود.

ولعل هذه الدوائر يمكن أن تكون إجابة شافية على النزاع في الفكر الاجتماعي وفلسفة التاريخ، بين تأثير الفرد في المجتمع أو العكس، فالإيمان بالتموُّج هو بداية بفعل الفرد وأثره على الدائرة الثانية (النخبة) ثم تأثير النخبة على الدائرة الثالثة (المجتمع)، والمجتمع بدوره يشحن بقوة تأثير كبيرة تعود بتأثيراتها على الأفراد.

كما أن من الضرورة بمكان فهم نتائج وآثار الفعل الجمعي

على الحضارة، في سعته وضيقة، يمكن أن يدخل البحث في جدلية ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

عند تتبع القصص القرآنية للحضارات، نجد أن بعضها قد انتهت في نتائج أفعالها إلى الهلاك والخسف والإبادة الكاملة، (كقوم نوح)، وقوم (لوط)، وقوم (عاد)، و(ثمود)، ومنها ما أصابها التحولات المختلفة والمتأرجحة، فنهضت الحضارة كما في مسار بني إسرائيل، وبعدها تسافت وتآخرت، وكانت النتائج الكارثية عميمة.

إلا أن النتائج كذلك يمكن فهمها حسب قانون دوائر التأثير الثلاث، لا عمومية مطلقة دون استثناء، بل الله ينجي الذين آمنوا، فبعض من نظر لأثر السنن التاريخية الحضارية، قال بتعميم النتائج كقانون جامد (لا يميّز بين المحسن والمسيء)، منطلقاً من قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة الأنفال ٢٥)، حتى أن العقاب إذا حل - حسب الإدعاء - فإنه يشمل حتى الأنبياء والمعصومين، وهذا الكلام مخالف (لسنة العدالة) وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة النجم ٣٨)،

وإن خصصت الآية بالآخرة، إلا أنه لا دليل على شمولية الآية الأولى لكل الأمة دون استثناء.

إضافة إلى أنها لا تتحدّث عن العقاب، وإنما عن فتنة، ويمكن أن تكون تأثيرات أفعال البشر، من جهة عقاباً للبعض، وفتنةً وامتحاناً لبعض آخر، كما أن الآيات التي تحدثت عن إنبهار الحضارات في قصص القرآن، تحدثت عن استثناء الثلاثة المؤمنة من العقاب الذي هو نتاج أفعال قوى الشر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. (سورة الأعراف ١٦٣ - ١٦٥)

وقفه نقدية مع المدعى

ولأن الموضوع ذا أهمية بالغة، وله دخالة أساسية في بحثنا، فإننا نقف ووقفه نقدية مع الفكرة القائلة: أن سنن التاريخ هي حركة قانونية لا تعرف حتى المعصومين، فإذا جاء العقاب

شملهم أيضاً، وقد مثل لذلك بالنبى موسى عليه السلام، وبالإمام الحسين عليه السلام، فقد نقل في كتاب السنن التاريخية في القرآن التالي:

«وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِهَلِكِهِمْ مَوْعِدًا * [الكهف: ٥٨، ٥٩].»

«وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا * [فاطر: ٤٥].»

ففي هاتين الآيتين الكريمتين، - والكلام لصاحب الكتاب - تحدث القرآن الكريم، عن أنه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم، وبما كسبوا، لما ترك على ساحة الناس من دابة، يعني لأهلك الناس جميعاً.

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوير هذا المفهوم القرآني، حيث إن الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة، فيهم الأنبياء، فيهم

الأئمة وفيهم الأوصياء. هل يشمل الهلاك الأنبياء، والأئمة العدول من المؤمنين؟ حتى ان بعض الناس استغل هاتين الآيتين لإنكار عصمة الأنبياء عليهم السلام.

والحقيقة، ان هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوي لا عن عقاب أخروي، تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه امة عن طريق الظلم والطغيان، هذه النتيجة الطبيعية لا تختص حينئذ بخصوص الظالمين من أبناء المجتمع، بل تعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم، وعلى اختلاف انحاء سلوكهم.

حينما وقع التيه أربعين عاماً على بني اسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب ظلمه وطغيانه وتمرده، هذا التيه لم يختص بخصوص الظالمين من بني اسرائيل، انما شمل موسى عليه السلام، شمل أطهر الناس وأزكاهم وأشجعهم، في مواجهة لظلمة والطواغيت، شمل موسى عليه السلام لأنه جزء من تلك الأمة، وبهذا شمل التيه موسى عليه السلام.

حينما حل البلاء والعذاب بالمسلمين نتيجة انحرافهم، فاصبح يزيد بن معاوية خليفة عليهم، يتحكم في دمائهم

واموالهم واعراضهم وعقائدهم، لم يختص بالظالمين من المجتمع الاسلامي، وقتئذ شمل الحسين عليه السلام، أظهر الناس وأزكى الناس واطيب الناس وأعدل الناس، شمل الامام المعصوم عليه السلام حيث قتل تلك القتلة الفظيعة هو واصحابه وأهل بيته.

هذا كله هو منطوق سنن التاريخ، والعذاب حينما يأتي في الدنيا على مجتمع وفق هذه السنن، لا يختص بخصوص الظالمين من أبناء ذلك المجتمع، ولهذا قال القرآن الكريم في آية اخرى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١) [الأنفال : ٢٥]. (انتهى كلامه).

لقد وقع هذا الإدعاء في خطأ كبير لا يتناسب مع موقعية المعصومين من الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فتصرّحه بأن هناك عقاباً يقع على الجميع نتيجة فعل فئة من الناس، وبما في ذلك الشخصيات النوعية من المعصومين المنزهين عن أي خطأ وأي تقاعس، هو عار عن الدليل، والآيات التي ساقها في بداية الحديث إنما تتحدث عن سنة أخذ الله الناس بما كسبت أيديهم، فهناك نتائج لفعل الإنسان تقع عليه، والآية الأخيرة التي

١ - السنن التاريخية في القرآن، ص ٥٦، مؤسسة التاريخ العربي.

ساقها حول الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تعم الجميع، لم تتحدث عن عذاب أصلاً بل تحدثت عن فتنة تصيب المجتمع، والفتنة مع أنها فعل اجتماعي بشري، إلا أنها ليست عقاباً للجميع، بل هي مظهرة لمعدن الإنسان، فالصادقون سيتجاوزونها بسلام، والمفسدون سيقعون فريسة لها، ولذا قال تعالى في بداية الآية (واتقوا).

وهنا نعرض بعض آراء المفسرين في هذه الآية وهذه الفكرة تحديداً.

قال القمي في تفسيره: «فهذه في أصحاب النبي ﷺ قال الزبير يوم هزم أصحاب الجمل: لقد قرأت هذه الآية وما أحسب أني من أهلها حتى كان اليوم لقد كنت أتقيها ولا أعلم أني من أهلها»^(١).

وفي تفسير الصافي عد أقوالاً: (والعياشي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: أصابت الناس فتنة بعد ما قبض الله نبيه ﷺ حتى تركوا علياً عليه السلام وبايعوا غيره، وهي الفتنة التي فتنوا بها، وقد أمرهم رسول الله ﷺ باتِّباع علي عليه السلام والأوصياء من آل محمد صلوات الله عليهم.

١ - تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧١

وفي المجمع عن عليّ والباقر عليهما السلام أنّهما قرنا لتصيين.

وعن ابن عباس أنّها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وآله من ظلم علياً عليه السلام مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي»^(١).

وقال السيد هاشم البحراني صاحب البرهان: «أصابت الناس فتنة بعد ما قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله حتى تركوا علياً عليه السلام وبايعوا غيره، وهي الفتنة التي فتنوا بها، وقد أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله باتباع علي عليه السلام والأوصياء من آل محمد عليهم السلام»^(٢).

وقد ذكر محمد صادق الطهراني في تفسيره قولاً جامعاً في ذلك حول الآية، قال: (إنها فتنة وليست - فقط - عذاباً حتى لا يشمل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة واختبار هي للذين ظلموا شر ودمار، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم وفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أناها وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، وأخرى فتنة شر

١ - تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٩٠، للكاشاني.

٢ - البرهان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٦٦، السيد هاشم البحراني.

وضيق ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٢١: ٣٥) فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (٩: ٤٩).

فمن جملة الفتن التي «لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» فتنة الخلافة بعد الرسول ﷺ. وعن النبي ﷺ قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل. وفتنتهم في ليلة القدر هل هي ماضية أم مستمرة^(١) وما أشبهه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين في الإيمان حيارى، فضلا عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أحد، وهنالك مجاله حق التقوى حفاظا على صالح الهدى.

ولقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان، ما ليس لها بقية إلا بكامل التقوى والإيمان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبُؤْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢: ٢١٤).

١ - المصدر في أصول الكافي باسناده إلى أبي عبد الله ﷺ عن علي بن الحسين ﷺ حديث طويل وفيه: ثم قال في كتابه «وَاتَّقُوا فِتْنَةً» في «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» يقول: إن محمدا ﷺ يموت يقول أهل الخلاف لأمر الله عز وجل: مضت ليلة القدر مع رسول الله ﷺ فهذه فتنة أصابتهم خاصة.

ف «يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة» (الخطبة ٥) - فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة - زيادة - في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ ٢٣) - و«كن في الفتنة كابن اللبون - رضيع الناقة - لأظهر فيركب ولا ضرع فيحلب» (ح)

ولا يقولن أحدكم: اللهم إن أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (٩٣ ح) ^(١).

إن الفهم الأوفق هو فهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ضمن الدوائر الثلاث للمنطق الحضاري، أي لا تصيب خصوص المباشر للفعل أو المقرّر له، بل تتعداه إلى المتعاون، والراضي به أيضاً، وهذا ما أشار إليه السيد المدرّسي، في قوله: «الخلافات الاجتماعية هي من الذنوب التي يلقي كل فريق مسؤوليتها على الآخرين، لأن كل جانب يرى أن عمله

١ - الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج ١٢، ص ١٨٠، محمد صادقي طهراني.

إنما هو رد فعل للآخرين، لذلك يكون على الجميع تجنب هذه الذنوب دون إنتظار ترك الجانب الآخر لها. ذلك لأن بليتها إذا جاءت عمت.. وعموماً المعاصي لا يمكن حصر آثارها السلبية في أولئك الذين يرتكبونها، وهي كالنار إذا اشتعلت في الهشيم تنتشر إلى كل مكان ولذلك يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي لا تصيب الذين هم في الجهة المباشرة للظلم، بل تعم الجميع، هم، والساكين عن الظلم، وكذلك الذين قابلوا الظلم برد فعل غير مناسب»^(١).

فإذا حسبنا مفهوم الفتنة أنه عقاب وعذاب من الله تعالى يقع على الناس نتيجة أفعالهم، فلا معنى أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، لأنه عذاب ومعاقبة من الله تعالى، والقول بوقوعه على المعصوم خصوصاً يقتضي الدقة في التعبير، نعم يمكن أن يقال أن الفتنة هي محنة اجتماعية عامة تسبب بها أفراد المجتمع في حق أفراد آخرين، والفتن إنما تُظهر معادن الرجال، فعندما يُسجن نبي أو إمام فهو نتيجة ضعف المجتمع ونتيجة ظلم الطاغية، ولكن النبي والإمام إنما يتألق رفعة ومقاماً عندما يضرب أمثلة

١ - من هدى القرآن، ج ٣، ص ١٨٦.

الصبر والتحدي والإستقامة. وكذا في ما وقع على الإمام الحسين عليه السلام من فضاة في القتل، فهو ليس عقاباً من الله كما هو مفاد قول المدّعي، بل هو تعد من الناس الذين يشكلون الدوائر الثلاث، أي الفاعل والراضي والساكت.

ويمكن البحث في الدلالات الروائية في ذلك، ولكن اختصاراً للمبحث، نقول أن الروايات مع تعددها، منها ما يؤكد هذه المعاني القرآنية والواقعية، ومنها ما يمكن أن يفهم منه خلاف ذلك، فلا بد من حمل دلالاتها على العقاب الذي يقع على الفاعل والراضي والساكت، أو حملها على مفهوم الفتنة العامة، أو استثناء المعصوم الذي أكدت الآيات في أكثر من موضع في نجاته من آثار أعمال قومه، كما في محنة نوح عليه السلام ونجاته من آثار أعمال قومه، في قوله تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(١)، وكذا عندما حل العذاب على عاد وأنجى الله النبي هوداً والذين معه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَجْأِدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾، والنبى لوط عندما
كذبه قومه وتعدوا عليه واستحقوا العقاب، أنجاه الله مع أهله
من ذلك العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ
مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢)، والكثير من الآيات التي تدل دلالة صريحة على
هذا المعنى، والقاعدة القرآنية هي في قوله تعالى: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ﴾ (٣).

١ - سورة الأعراف ٧١ - ٧٢.

٢ - سورة الأعراف ٨٣ - ٨٤.

٣ - سورة الأعراف ١٦٥.





تفاوت المنطق الحضاري

التأسيس لمقولة المنطق الحضاري المؤثر في سقوط الحضارات أو في تقدّمها، يدعو للتساؤل عن تخلف هذا القانون عن الحضارات التي لا تؤمن بالحق، حيث وجدنا العرض القرآني أن أغلب الأمم التي تدهورت وأصابها العقاب المدّمّر كان نتيجة التكذيب للحق، الذي كان يمثله الأنبياء والمصلحون الربانيون، فلماذا لا نجد الحضارات المعاصرة في حالة انهيار مع ما نجده من عدم التزامها الحق والوحي؟

إن الفعل الحضاري المعاصر ليس خارجاً عن قانون السنن الحضارية التي يستفاد من القصص القرآنية الخاصة بالمنطق والفعل الحضاريين، وتتضح الإجابة على هذا التساؤل بعد التدبر في الآيات القرآنية التي تسرد لنا حكاية الحضارات، لنكتشف من خلالها أن هنالك تفاوتاً في الفعل يؤدي إلى تفاوت في النتائج، ليس كل فعل حضاري يؤدي إلى نتائج كارثية، كما أن

هنالك من التوجه الحضاري ما يمكن أن يكون مرّماً ولوبشكل نسبي لتلك الآثار السلبيّة، وأن الإنهيار الكبير إنما يأتي من خلال التّكذيب والتّحدي المباشر، أو من خلال تراكم الفعل السلبي تراكمًا يمنع كل المرمّات النورية والخيرية.

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١).

ورد عن هذه الآية في تفسير العياشي عن حفص بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال إن قوماً كان في بني إسرائيل يؤتى لهم من طعامهم - حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها، فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يتبعونها ويأكلون منها - وهو قول الله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ

فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١﴾.

قال علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: «نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا هُمُ نَهْرٌ يُقَالُ لَهُ الثَّلَثَانُ [الثَّرَثَارُ] وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ خِصْبَةً كَثِيرَةَ الْخَيْرِ، فَكَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْعَجِينِ وَيَقُولُونَ هُوَ الْيَنْ لَنَا، فَكَفَرُوا بِأَنْعَمِ اللَّهِ وَاسْتَنْجُوا [وَاسْتَحْفُوا] بِنِعْمَةِ اللَّهِ، فَحَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الثَّلَثَانَ فَجَدَّبُوا حَتَّى أَحْوَجَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَكْلِ مَا كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِهِ» (٢).

نلاحظ في السيرورة الحضارية لهذه القرية التي عرضها القرآن الكريم بعرض المنطق الحضاري الذي كان له التأثير على المسار الحضاري، فنقف على مجموعة من البصائر:

١- أن قصة هذه القرية (مثل) لسائر القرى، وهذا يعطي البعد السنني الذي يجري في كافة الأمم والحضارات.

٢- كانت تعيش الأمن في المستوى المعيشي، والرخاء التام، وهذا الرخاء لم يكن مصدره الأرض التي يعيشون عليها وحسب، بل وحتى من المناطق الأخرى، (من كل مكان)،

١ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٧٣.

٢ - تفسير القمي، ج ١، ص ٣٩١.

وهذا مؤشر إلى أن نتائج أفعالهم وانجازهم في عمارة الأرض كان عميماً.

٣- بعد تكاثر النعم التي أنعمها الله عليهم، لم يؤدّوا واجبها بالشكر، بل كفروا بتلك النعم واستخفوا بها، وأصابهم الطغيان في فعلهم، وكان ذلك الفعل كثافة سائدة، فالنتيجة السننية لكفران النعم هي سلبها منهم، فبعد أن كانوا آمنين، أذاقهم الله لباس الجوع والخوف فيما بعد، وهذه نتيجة تقهقر حضاري وتراجع إلى الوراء وخسارة لنعم كانت حاضرة، ولكن لم يصل الأمر بهم إلى حد استحقاق الإبادة الحضارية.

٤- مرّت هذه الحضارة بمرحلة أخرى، وهي أن الله تعالى أراد أن يرفع عنهم الآثار السلبية من خلال الشكر بالإستجابة إلى الرسول المبعوث من الله تعالى، وبعد أن ألقى عليهم الحجّة، ما كان من منطقتهم إلا التكذيب والتحدي الصريح، فكان حلول العذاب.

فالعذاب المؤدي إلى الإنهيار الحضاري، كان نتيجة أسلوب التعامل مع النبي المرسل، وهكذا فالحجّة التامة إذا أُلقيت على

قوم، وبلغ منهم التحدي المباشر لله ولرسله، فإنهم يستحقون الإنهيار التام.

ونفس هذا المنهج نراه في آيات عديدة، منها قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِغُتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(١).

وقوله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢).

١ - سورة الأنعام ٤٢ - ٤٤

٢ - سورة الأعراف ١٦٣ - ١٦٥

ولنا في التحولات الحضارية التي جرت على بني إسرائيل خير دليل على ذلك، فيمكن من خلال التدبر في الآيات واستخلاص عدة عبر تقود إلى ضرورة وعي الشابك ودخالة إرادة الإنسان من جهة في تشكّل مساره الحضاري، ودخالة الرحمة الإلهية ودور النبي في تغيير المعادلة.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ

لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ
بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ
وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ
فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ
كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَإِذْ
قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا
مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ
مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾.

فمن خلال هذه البصائر تتكشف لدينا أن المنطق الحضاري له مستويات، فبمقدار ما يكون الفعل سلبياً ستكون نتائجه على الحضارة سلبية، وبمقدار ما يكون الفعل إيجابياً فإنهم سيحصدون آثاره الإيجابية، وهذا ما يجعل إرادة الإنسان إحدى المؤثرات في السنن التاريخية، بل هي ما يسميه المرجع المدرسي في كتابه المنطق الإسلامي بحتمية الحرية البشرية، معبراً عنها بالتالي: «حتمية الحرية البشرية، التي لا يمكن أن تموت رغم كل ضغوط التاريخ عليها... والقرآن الحكيم يذكرنا في آياته، بهذه الحرية في مناسبات، مرة حين يتحدث عن أفراد تحدوا واقع أمتهم الفاسد، وتطلعوا إلى الأمام، أولئك الأبطال استثمروا حريتهم وخرجوا من قوقعة الظروف إلى رحاب الإنسانية.

فقد قال ربنا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ولم يقبل ربنا تبرير الظالمين أنفسهم بأنهم كانوا مستضعفين، بل قال لهم (كما جاء في القرآن): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ

ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١﴾.

وقال القرآن للمسلمين بصراحة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

ولولا الحرية لما تقدّمت البشرية بوحدة واحدة، ولما كانت
ثورات تقدمية ولا إبداع ولا مبادهة.

إن ثورة الإنسان هي استثمار لحرية. ضد أفكار ونظم
(وحتميات سائدة!!) وهي بذلك تحدّ لضغط الظروف، وهي
دليل الحرية» (٣).

كما أن هنالك حقيقة مهمة، وهي أن قياس التأثير الحضاري

١ - سورة النساء ٩٧.

٢ - سورة آل عمران ١٣٩ - ١٤٠.

٣ - المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، المرجع المدرسي، ص ٥٧١.

من خلال المنطق الحضاري في الأمم المعاصرة، يحتاج من الباحث إلى التدقيق في مدى التعميمات التي توحى بأن الحضارة الغربية على سبيل المثال تعيش نهوضاً وتقدماً وأماناً على كافة المستويات، فالإنبهار الشكلي قد يعمي عن الحقائق، فقد لاحظ المراقبون سقوط بعض الحضارات وتأخرها كالاتحاد السوفياتي، ولاحظوا وأقرّوا بالأزمات الاقتصادية العاصفة بالإقتصاد الرأسمالي في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، كما ينبغي ملاحظة الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والحالة النفسية في تلك المجتمعات جرّاء بعدها عن الله تعالى وعن قيمه، فإن الحضارات المعاصرة لا تعيش أحسن أيامها كما يتصور البعض.



القسم الثاني

رؤية قرآنية في مسار الحضارات





رؤية قرآنية في مسار الحضارات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. أَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٥٩].

نحاول من خلال التدبر في هذه الآيات من سورة الشعراء

و مزاجتها بمشيلاتها ومكملاتها من القرآن الكريم أن نكوّن صورة عامّة لمسار الحضارات الإنسانية وكيفية التعامل مع معطياتها ومنجزاتها، نستخلص رؤية لمجريات الأحداث الراهنة و تفاعلات الحضارة أو الثقافات المعاصرة، لتمكّنا من اتخاذ موقف مبدئي مأمون في ظل التجاذبات المتنوعة والمواقف المتباينة تجاه التحولات الكبرى التي تتسع لتشمل كافة المجتمعات، فنرجو من الله العليّ القدير أن يؤتينا من لدنه طاقة لبلوغ المقصد.



(١)

مقومات النهوض الحضاري

عند إرادة النهوض الحضاري بأمة من الأمم إلى مدارج الكمال، يحتاج القادة والمصلحون إلى مقومات تقوي أساس عملية النهوض وتضمن سلامة مسيرتها، و البصائر القرآنية تشير إلى عدة مقومات من خلال عرضها لقصة حضارة ثمود التي أرسل لها الله عز وجل نبيه صالح عليه السلام، ومن تلك المقومات:

١ - العلاقة الأخوية بين المصلح والمجتمع

العلاقة بين المصلح والمجتمع لا بد أن تكون علاقة قريبة ووثيقة كعلاقة الأخ بأخيه، كما أشارت الآيات في قوله تعالى (إذ قال لهم أخوهم صالح)، وكذلك نرى هذه الإشارة متكررة عند حكاية القرآن لقصص الأنبياء مع أقوامهم، (أخوهم هود)، (أخوهم نوح)، (أخوهم لوط)، والقاعدة العامة التي

يعرضها القرآن الكريم لتبيان وتأسيس هذه الحالة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١)، فالمصلح إنما يقوم بالإصلاح بين إخوة له وأخوة فيما بينهم، لذا ستكون عملية الإصلاح أكثر رأفة ورحمة، لأن القائد سيأخذ في حسابه تلك الحالة الأخوية.. هذا من جهة المصلح، أما من جهة المجتمع المتلقي فإن حالة الألفة ستولد الاطمئنان وتزيل البؤس والوحشة عنهم، نجد هذه الحقيقة عندما أراد نبي الله يوسف عليه السلام أن يزيل حالة البؤس والوحشة عن قلب أخيه الذي لم يكن يعرفه بعد، بقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، فمن يشعر بقرب الأخ لا يستوحش.

وعندما يجيد القادة عن هذه الخاصية فإنهم يستعلون ويتكبرون ويهتمون بشؤونهم الذاتية ويصبحون في معزل عن هموم المجتمع وقضاياها فضلاً عن الطريقة القاسية والخالية من روح الأخوة التي يديرون بها أمور الناس، عندئذ ينفض

١ - الحجرات : ١٠ .

٢ - يوسف : ٦٩ .

الناس من حولهم وتقوم الثورات والحركات المطالبة بإبعادهم وإزاحتهم عن مناصبهم، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

٢- وضوح الرؤية ضمانة الاستمرار

لعل أكثر الأسباب في إخفاق بعض المصلحين والذين أرادوا إحداث التغييرات في مجتمعاتهم كالحركات الإصلاحية، هو أنهم لم يأتوا برؤية واضحة ومبيّنة لحركتهم، لذا نراهم يتقهقرون وتقوم الظروف بإملاء شروطها ومقاصدها على مسيرتهم، لذا فمن المقومات التي تساهم في دفع عملية الإصلاح والتغيير الحضاري هي الوضوح في الرؤية منذ الانطلاق والبدء في الحركة، نرى ذلك في قول الله عز وجل: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَنِّي﴾، ف(رسول) تحديد المهمة التي جاء بها النبي، و(أمين) تمثل عهد الاستمرار على تلك المهمة التي جاء بها، وهي الضمانة التي يحتاجها المصلحون لمواصلة درب

١ - آل عمران: ١٥٩.

التغيير حتى نهاية الطريق، وللمحافظة على المبادئ التي انطلقوا منها، وهي الصفة التي جاء بها جميع الأنبياء عليهم السلام حيث تكررت (إني لكم رسول أمين) في قصصهم القرآنية عدة مرات، لذا عندما أراد عفريت من الجن أن يثبت مقدرته على المجيء بملك بلقيس، قال للنبي سليمان: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وكذلك عندما قامت ابنة نبي الله شعيب باستتجار النبي موسى عليه السلام قالت معللة هذا الاختيار: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، فإن القوة أيًا كان جنسها (عسكرية، علمية، اقتصادية، شعبية) فإنها لا شيء إذا لم تقترن بها الأمانة.

ولتوضيح الأمر أكثر بعد توضيح المهمة التي سيقوم بها النبي وبالإضافة لضمانة الاستمرار، قد حدّد مهام الناس بقوله: (فاتقوا الله وأطيعون)، تقوى الله التي هي محور حركة الأنبياء وجميع الرسالات الإلهية وتلخيص جميع التعاليم السماوية.

وقد حدّد لهم طريق أخذ تلك التعاليم والقنوات التي يتبعونها، وذلك الطريق (طاعة النبي) الذي أكد الله تعالى عليه في كثير من آياته، قال تعالى تعميماً لتلك الطاعة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فالآلية التي توصل أمر الله تعالى للناس هي طاعة الرسول.

٣- مبدأية الممارسة

من المقومات المميزة للنهوض والتغيير لأي حركة إصلاحية هي أن تكون حركتها الإصلاحية ذات منطلق مبدأية إلهي، وهو إرادة الإصلاح والارتقاء بالمجتمع من أجل الله، لا من أجل المصالح والمنافع الدنيوية التي إن تحوّلت إلى ثقافة تسيّر أي حضارة فإنها تدوس على المبادئ والقيم التي تؤمن بها.. هذا ما كان واضحاً لدى الحضارات الإنسانية التي تخلّت عن المبدأ الإلهي، فقد عجزت عن الالتزام بمبادئها ولجأت إلى منافعها ومصالحها كأساس ومقياس للحركة وللإصلاح، لذا يقول تعالى على لسان نبيه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

إن الله عز وجل وعد المصلحين بعدم ضياع أجرهم وقال: (إنّا لا نضيع أجر المصلحين)، وهذا الأجر وصفه بعدة صفات في كتابه الكريم، (أجر كريم)، (أجر عظيم)، (أجر كبير)، (أجر غير ممنون)، (أجرأ حسناً). كل ذلك لكي لا يكون الأجر الدنيوي هو الأساس في التحرك نحو الإصلاح، لما يسببه من

١ - الشعراء: ١٠٩.

فساد في النظام وظلم لأكثر الناس، فإن الفقراء والمحتاجين لا يملكون أجراً يمكن أن يكافئوا به من يملك زمام التغيير، بينما هم أولى الناس به، ولهذا نرى في العالم الراهن من الانحياز التام للدول الغنية والتي تحتوي على المصالح المادية، من قبل من بيدهم القوة والثروة، على حساب من يحتاجون للتغيير والإصلاح بالفعل، لتزداد الهوة بين الفقراء والأغنياء.

إن الله تعالى جعل الأجر الكبير والكريم والعظيم عنده، لكي تحصل كل المجتمعات على الأهمية ذاتها من الإصلاح، وإن بدا للبعض أن الأجر الدنيوي هو الأهم وهو الوسيلة للتحرك، فإن الله تعالى يؤكد ويقول: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١).



(٢)

ظاهرة الإنبهار الحضاري

من الثوابت الحضارية التي ترافق الحضارات في صعودها وتفوقها هي ظاهرة الانبهار التي تستولي على المجتمعات، الانبهار بالتقدم الذي حققته الحضارة في الدنيا، من الصناعة والقوة والرفاه المادي، والموقف السلبي الذي يتخذه الإنسان بسبب إعجابه هذا، هو حسبانته أن ذلك يكفيه ليعيش عيشاً رغيداً مدى الحياة، وتساوره ظنون البقاء والأبدية والأمن من طوارق الليل والنهار لحضارته، مكتفياً ومتخلياً عن القوة الحقيقية التي تمنح الحياة وتهطل عليه الأمن و الرفاه، و هي القوة الإلهية لله خالق الكون.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة التي يعرضها في سياق قصة حضارة ثمود، بقوله: ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ

الجبال بيوتاً فارحين»، (أتركون) أي أتحسبون أنكم متروكون!.

ورغم أن هذه الظاهرة هي ثابت من الثوابت الحضارية إلا أنها ليست في صالح الحضارات إذا ذهب هذا الانبهار بصاحبه إلى نكران الحقائق والمبادئ، وذلك عن طريق تحوّل الإنجازات من وسائل من صناعة يد الإنسان و مسخرة لحياته، إلى أساس ومقياس يقود الإنسان ليصير من خلاله الأشياء ويكون بها ثقافته، وبالتالي تبدأ مسيرة الحضارة لتتحوّل من الصعود إلى التراجع والتلاشي، شيئاً فشيئاً..

العودة إلى الحقائق

إن نبي الله صالح عليه السلام بعدما وُصف الحالة التي كان عليها قومه، أشار إلى تأثير إنجازاتهم الدنيوية على ثقافتهم ونمط تفكيرهم، فهم يعتقدون أنهم وبما وصلوا إليه من التقدم المادي، وبما أوتوا من قوّة، (آمنين)، مكتفين بها عن أي شيء آخر في الحياة، فأكد النبي عليه السلام لهم بعد ذلك على ضرورة العودة إلى الحقائق والثقافة الخالية من شوائب وآفات الإنجاز ومتعلقات المادّة، وهي تقوى الله والتزامها من خلال طاعة الأنبياء، قال: (فاتقوا الله وأطيعون).

إن الله تعالى يعطينا مجموعة من البصائر القرآنية تهدينا إلى حقيقة مهمة، وهي أن مقياس الحق والصلاح والاستقامة والرشد لا تتمثل في حالة الانبهار والإعجاب والحب لما نراه مبهرًا و عجبياً ومرغوباً، يقول ربنا عز وجل كحقيقة عامة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، فالخبِيث مفهوم لا يتغير بتغير الشكل والمظهر أو بالكم والعدد، ولا يتغير إذا سحر أعين الناس وأعجبهم حسنه الظاهري.. لذا فإن الله تعالى ينهى عن هذه الحالة في آية أخرى إذ يقول: ﴿فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾^(٣). وحتى على مستوى البشر بالنظر إلى ثقافتهم التي ينطلقون منها يقول تعالى: ﴿وَلَا مَؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، ويقول عز وجل: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ

١ - البقرة: ٢١٦.

٢ - المائدة: ١٠٠.

٣ - التوبة ٥٥.

الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

فالآية الكريمة تدعو للوصول إلى العمق ليبصر الإنسان ماهية الثقافة المحركة لهذا المجتمع أو ذلك، لكي لا تسوقه مشاعره بما زينته لها بهرجة الحضارات إلى نكران الحقائق الكبرى وصدّ الهدى والابتعاد عن المنعم الذي أغدق عليه تلك النعم ووفقه للوصول إليها.

وعندما رأى النبي صالح عليه السلام سيادة تلك الظاهرة الخطرة في قومه، عمد إلى الإشارة إلى مصدر كل تلك الإنجازات وقال لقومه في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّحِيبٌ﴾ (٢)، ولكنهم لم يستمعوا إليه، (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى).

لذلك نجد أن الله عز وجل ذكر بهذه الحقيقة وأكد على الالتزام بها، عندما صار فتح مكة على يد رسولنا الأكرم النبي محمد صلوات الله عليه، حيث مرحلة الانتصار والتقدم لمجتمع الإسلام

١ - البقرة : ٢٢١.

٢ - هود : ٦١.

عند فتح مكة، نجد ذلك في سورة النصر، حيث قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(١).

استخلاصات

لقد رسم لنا القرآن الكريم صورة واضحة لظاهرة الانبهار التي تتاب المجتمعات، عبر عرضه لمسار الحضارات الماضية موجهاً الحديث للإنسان في كل زمان وفي كل البقاع، ونرى المشهد الراهن لواقعنا المعاصر أنه لم يجد عن تلك المعادلة التي تحدت عنها القرآن الكريم، فالمجتمع الغربي وتبعه الكثير من أفراد المجتمعات الأخرى قد تلبسهم الانبهار برونق الحضارة الغربية لما وصلت إليه من إنجازات صناعية وتكنولوجية، فانساقوا وراء تمظهراتها، غافلين أو متغافلين عن المحتوى القيمي والثقافي لتلك الحضارة، مقبلين عليها بكلها.

وقد أشار القرآن الكريم لذات الأدوات التي تستخدمها القوى الغربية للتأثير على الناس، منها المنجزات الصناعية التي وصلوا إليها، إضافة إلى الحالة المدنية واستخدام الوسائل

الفارهة، كما أنهم يستعينون بها أشار إليه القرآن في كثير من آياته، يستعينون بالإغراء بالنساء والقوة العسكرية والترف المادّي ونمط المعيشة، كإغراء يجتذب الناس نحو الحضارة الغربية.

ولكن ليس ذلك هو المقياس الحقيقي للتفوق الحضاري، وإن كان التفوق العلمي والصناعي يعدّ ميزة إيجابية ونجاح يحتسب، إلا أنه ليس مقياساً، ولا ينبغي أن يجلب عنا الحقائق والهدى، إنما ينبغي أن يكون ذلك معيناً لنا ومقرباً للهدى والرشد، لأنه بفضل من الله تعالى الذي أنشأنا من الأرض واستعمرنا فيها.



(٣)

المسؤولية الحضارية

في حركة الإصلاح الحضاري لا يكفي التوجّه في العملية الإصلاحية نحو (المفسد) المباشر لعملية الإفساد فحسب، بل إن للعمل على المستوى الاجتماعي أهمية فاعلة، فهي حركة إعلامية ضاغطة على المفسدين لما يعيرونه من أهمية للرأي العام، وهي أيضاً - أي الحركة على المستوى الاجتماعي - تشكيل وعي عام مدرك للمشكلات الحضارية القائمة، لتكون لديه المقدرة على تجاوزها أو المطالبة بإصلاحها، مما يساهم في إفشال كل السياسات التي تعمل على الإفساد، وتبطل مفعول الهيمنة للمفسدين.

والخطاب في الآيات التي وَّجَّهها نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما هو خطاب موجّه للمجتمع، ولكنه خطاب حضاري، أي مستوعب للقضايا الحضارية الكبرى، وذلك في قوله تعالى: (.. ولا تطيعوا أمر المسرفين ..).

الدخول في دائرة المفسدين

لا يشترط في الدخول في دائرة المفسدين أن يكون الإنسان ممن يصنع تلك السياسات أو يضع تلك المخططات، بل الامتثال لها من قبله يُعدّ دخولاً فيها، وذلك لأن المفسد لا يستطيع إجراء خطئه إلا إذا وجد شريحة عريضة من المجتمع تستجيب لما يرسم من مخططات، فهناك مسؤولية حضارية ملقاة على عاتق المجتمع وعليه أن يتحملها، وهي وعي السياسات الكبرى والمخططات والأحابيل، وعدم دعمها لبلوغ أهدافها، لذلك وجّه نبي الله صالح عليه السلام الخطاب للناس قائلاً: (لا تطيعوا أمر المسرفين) ناهياً عن إطاعة أمرهم، وهو المسار الذي يتبعونه لإشاعة الفساد، فإننا نرى بالرغم من أن الذي قام بجريمة عقر الناقة في قوم صالح (وهو فعل إفسادي) شخص واحد، كما في قوله تعالى: (إذ انبعث أشقاها)، فإن الله عز وجل قد أطلق على ثمود وصف العقر، فقال عز شأنه: (فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ)، وأيضاً عندما جاءهم العذاب (فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين).

قياس مستوى المجتمعات

وعلى ذلك فإنها تقاس المجتمعات في مستواها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي وغيره، بنسبة الأكثرية، كما أشارت الآية الكريمة: (وما كان أكثرهم مؤمنين) إشارة إلى قوم صالح الذين عبّرت عنهم الآيات في البدء بـ (كذّبت ثمود المرسلين)، كحكم ووصف لحالة مجتمع ثمود، فإذا كان أكثر الناس في مجتمع ما فاسدين جاز لنا أن نطلق عليه بأنه مجتمع فاسد، وإذا كان أكثرهم صالحين، جاز لنا أن نصفه بالصلاح، مع التأكيد على نقطتين في هذا المقياس:

الأولى: أن الرّاضين بفعل المفسد أو المصلح أو الممثل لأمره إنما يصنّف من فئة المطاع، كما نهت الآية عن (طاعة أمر المفسدين) وأمرت بطاعة (الله والنبي) الذين يمثلون الإصلاح.

الثانية: وسم المجتمع بأنه يعيش ضمن حالة سلبية أو إيجابية، لا يعني احتساب المغايرين لهم معهم، بل لا بد من حفظ الاستثناء وتقدير مواقفهم، فإن الله تعالى استثنى من قوم صالح المؤمنين، من العذاب وقال: ﴿وأنجينا الذين آمنوا و كانوا يتّقون﴾.

ويجدر الالتفات إلى أن الآيات الشريفة في سردها حضارة ثمود تشير إلى أن الذي يقوم بالإنفاساد إنما هم مجموعة صغيرة مكونة من تسعة أشخاص، وذلك في قوله تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)^(١)، وقد ذهب سياق الآيات إلى أبعد من ذلك، فهي تحكي لنا أن تحالفاً وترابطاً منسّقاً يجمع أولئك التسعة، يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٢).

وهذا ما يتجسد في واقعنا الراهن فيما نراه من هيمنة الحكومات كأفراد وجماعات قليلة على الرقع الاجتماعية الواسعة، بل ويتضح ذلك لنا على المستوى الحضاري العام في مرحلة العولمة، من استئثار بعض الشركات الكبرى على مقدرات العالم وهيمنتها على ثقافته وسياسته واقتصاده وسلوكه، والتي يقدر عددها بـ ٥٠٠ شركة كبرى حول العالم تحصل على أموال هائلة تقدر نسبتها بنصف المدخول العالمي،

١ - النمل : ٤٨ .

٢ - النمل : ٤٩ .

وينحصر عدد المؤثرين أكثر، في السلطة التي تبعث بتوصياتها وتعليماتها المهيمنة، وهي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وبعض الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة، على تفصيل لسنا بصدهه.

طريق النجاة

رغم التحديّات الهائلة التي تواجه الدعاة المصلحين، إلا أنهم لا يفترّون من الدعوة إلى الله والحق والصلاح، ورغم التأثير على السواد الأعظم من الناس من قبل القوى المهيمنة بثقافتها المفسدة، فإن على المجتمعات أن تتحمّل مسؤوليتها الحضارية، بأن لا يستوحشوا طريق الحق لقلّة سالكيه، فإن دعوة النبي صالح عليه السلام كما لاقت الرفض لاقت كذلك القبول، وإن كان من الأقل عدداً، ولم يصدّهم انبهار الأكرثية وانسياقهم نحو ثقافة الفساد عن الإقبال على الحق، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١)، هذا ما ينبغي أن يرسم في ذهنية المجتمعات، لأن إتباع ثقافة الصلاح والإصلاح ولو كانت مع

القلّة، توجب النجاة في الدنيا من مخاطر ومزالق الإفساد ووحل
الفساد والرذيلة، وكذلك النجاة في الآخرة لتشملهم الرحمة
الإلهية الواسعة، يقول ربنا عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(١).



(٤)

الانهيار الحضاري

لكل حضارة أجل، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١). ولكن كل حضارة لا بد أن تعمل على إطالة عمرها بثبات قدمها على نهج الحق، وحمية الأجل تقرّر عدم الأبدية لأي حضارة مهما بلغت من تحقيق الإنجازات والتطورات، ويمكن أن تطول المدّة حتى يأذن الله بالنهاية، كأن يندلع يوم القيامة.. وقبل ذلك تواجه الحضارات خطر الانهيار والتحطّم، حتى تلك التي أبلت بلاء حسناً، وتفوّقت على مثيلاتها، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيَّامَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٢).

١ - سورة الأعراف ٣٤.

٢ - النحل: ٩٢.

ونبي الله صالح عليه السلام أمر بطاعة الله ورسوله، الأمران اللذان يمثلان مسار الصلاح، للمحافظة على المكتسبات الحضارية التي لديهم، ونهاهم عن طاعة أمر المسرفين، وقال (ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون).

الإسراف الحضاري

إن العمل الذي يحقق الانهيار ويسبب الفساد في الأرض كما عبّرت الآيات، هو فعل (الإسراف) وبما أنها تتحدّث عن الإفساد على مستوى الأرض وهو مستوى عريض من التأثير، فإن الإسراف الذي يؤثر ذلك التأثير، لن يكون كالإسراف المتبادر على المستوى الشخصي، بل هو إسراف على المستوى الحضاري.

وعندما نتبّع آيات الله عز وجل في كتابه العزيز، سنكتشف لنا عدّة حقائق في مجال الإسراف الحضاري، تبين لنا معالمه الواضحة عن طريق عرض أشكاله المختلفة، وتبين معالمه المعاصرة:

« في الجانب الغذائي يقول عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١).

« وفي جانب إدارة الإنفاق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢).

« وفي الجانب الأخلاقي والسلوكي: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾^(٣).

« وفي جانب الحكم وممارسة الظلم الشامل والحروب والجريمة: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٤).

وفي عرض واضح للعمليات الاقتصادية التي لا تراعي حقوق المحرومين، وتقوم بإتلاف المحاصيل والأغذية عوضاً عن توزيعها أو بيعها بثمان زهيد على الشعوب التي تعاني خطر

١ - سورة الأعراف ٣١.

٢ - سورة الفرقان ٦٧.

٣ - سورة الأعراف ٨١.

٤ - سورة يونس ٨٣.

المجاعة وألم الجوع، وهو حق من حقوقهم، كما يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١)، تعرض الآيات هذا المشهد وتحتّ على التزام العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢).

فمن علامات الإسراف الحضاري الانشغال بالترف المادّي، وإساءة توزيع الثروات، وتفشي الأمراض السلوكية، كالزنا والشذوذ الذي أصبحت له منظمات للدفاع عنه في عدّة دول، حيث قامت بعض الدول بتشريع الزواج المثلي والإعتراف به كزواج اعتيادي، كما ومن الإسراف هو الانشغال بالحروب وقتل الأبرياء، والطغيان، وعدم العدل في الحكم، هذا هو الإسراف الذي يهدّد الحضارات بالانحيار أو التقهقر.. وهذا ما نراه ماثلاً أمامنا في الحضارة الغربية عبر سياسة الحكومات

١ - سورة المعارج ٢٤ - ٢٥.

٢ - سورة الأنعام ١٤١.

الظالمة، واللهث وراء الكسب المادّي الجشع، وإشاعة المنكرات والفواحش، وما شابه ذلك، فإن ما وصلت إليه هذه الحضارة من تقدّم لا يشفع لها، ولا يعطيها ضمانة الاستمرار دون الرجوع عن الانحراف وسياسة الإسراف، والاعتراف بـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾^(١)، وإلا ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾^(٢)، لذلك نهت آيات الذكر الحكيم عن اتباع سبيل المرفين والتشبه بأعمالهم وتقليديهم في إسرافهم.

انبهار يتجاوز العقل

رغم وضوح الرؤية واقتراب الانهيار، بل والعيش في الانهيار، فإن الشيطان يضرب على العقول التي لم ترتبط بالله، فيزيّن الشيطان لهم سوء أعمالهم وإسرافهم، كما يزيّن للبعض المباني الفارهة، والبطر المعيشي، وامتلاك الأسلحة القتّاة، وشبكات التحلل والجريمة المقنّعة وغيرها، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلا يستوعبون الحقائق، فيجادلون كما جادلت ثمود صالحاً عليه السلام، و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

١ - سورة آل عمران ١٤٧.

٢ - سورة النحل ٩٤.

مِنَ الْمُسْحَرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾ وقد ﴿كَذَّبْتَ ثُمُودٌ بِطُغَوَاهَا﴾^(١).

الامتحان الواقعي

الامتحان الحقيقي يتمثل على أرض الواقع، الذي يبيّن هل أن الإنسان سار وفق القانون والسنة الطبيعية العادلة للكون، أم أنه عاث فيها فساداً؟

فعرض الحقائق يبيّن المستوى الذي تحتله تلك الحضارة، قال النبي صالح عليه السلام لمحاوريه: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فإن امتحان الناقة امتحان على أرض الواقع المعاش، حيث يتضح خرقه من خلال الملامسة والمعاناة، إذ وضع الله القوانين التي تحفظ التوازن بين جميع الناس وكافة الأمم، ولكي نستظهر قانون الإنصاف والعدل والأمن الاجتماعي والامتحان الحضاري، نرى أن قانون التوازن جاء في هذه الآية ليحدد الوقت (يوم معلوم)، ويقول تعالى في آية أخرى

عن نعمه للخلق وخزائنه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(١)، فالقدر واليوم المعلومان، متعلقان بحقوق الناس من نعم الله، كما في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمُحْرَمِ﴾^(٢)، فالقانون هو (إعطاء الحق المعلوم، في اليوم المعلوم، بالقدر المعلوم)، وهو قانون الإنصاف والعدل وعدم الإسراف، قانون الأمن من الانهيار الحضاري.

وقد فشلت ثمود في الامتحان الواقعي وتعدت على القدر المعلوم، قال عز وجل: ﴿إِنَّا مُرْسَلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾^(٣).

بعد عرض الحقائق لابد أن تهتز الأنفس، وتنفص الكشبان من فوق العقول، ليبصر الإنسان ما قدمت يدها، ليعيش حالة الندم ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، ومن يلتزم الغفلة ويفضل العيش

١ - سورة الحجر ٢١.

٢ - سورة المعارج ٢٤ - ٢٥.

٣ - سورة القمر ٢٧ - ٢٩.

في وحل الشهوات وانتهاج نهجها، فإن عذاب الله يكون نهايته،
(فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا)، وذلك هو الانهيار. فأى
حضارة تعبت في هذا القانون الحقوقي ستعيش حالة التفكك
والتصدّع لتبدأ مشوار الانهيار.



ملحق

ملاح في فلسفة التاريخ عند الأمام علي عليه السلام

نسرء كملحق بالبحء جزءاً من خطبة للإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام وتسمى الخطبة القاصعة، يفصل فيها رؤية تاريخية، متصلة بفلسفة التاريخ وحركته من خلال النظر للأمم السابقة، كما سردها القرآن الكريم، وسوف نقوم بإضافة عنونة جانبية من أجل تظهير المطالب، وسنكتفي بإرء النص دون شرح.

قال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام:

١ - النظر للتاريخ

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ
اللَّهِ، وَصَوَلَاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ
وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ.

٢- أثر الأعمال

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمُثَلَاتِ، بِسُوءِ الْأَفْعَالِ
وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَاهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ
تَكُونُوا أَمْثَاهُمْ.

٣- اتباع عوامل النهوض

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالِيهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتْ
الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنُهُمْ [حَالَهُمْ] وَزَاوَتْ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ وَمُدَّتْ
الْعَافِيَةَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكِرَامَةُ
عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ، مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ وَالتَّحَاصُّصِ
عَلَيْهَا وَالتَّوَاصِي بِهَا.

٤- اجتناب أسباب السقوط

وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ وَأَوْهَنَ مُتَتَّهُمْ مِنْ تَضَاعُنِ
الْقُلُوبِ وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

٥- سنن التاريخ والاعتبار منها

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي

حَالِ التَّمَحِيصِ وَالبَلَاءِ، أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الخَلَائِقِ أَعْبَاءً وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا، اتَّخَذَتْهُمْ الفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ العَذَابِ وَ[جَرَّعُوهُمْ جَرَّعَ المُرَارِ] جَرَّعُوهُمْ المُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ الغَلْبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ وَالإِحْتِمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ البَلَاءِ فَرَجًا، فَأَبَدَهُمُ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا وَأَئِمَّةً أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتْ الكِرَامَةُ مِنَ اللهِ هُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ، وَالاعتبار بهم:

٦- المنطق الأمي الناجح

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً وَالقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً وَالبَصَائِرُ نَافِذَةً وَالعِزَائِمُ وَاحِدَةً أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الأَرْضِينَ وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ العَالَمِينَ.

٧- التحولات التاريخية

فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتْ

الْفُرْقَةُ وَتَشْتَتِ الْأُلْفَةُ وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْنِدَةُ وَتَشَعَّبُوا
مُخْتَلِفِينَ وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، وَقَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ
وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ وَبَقِيَ قِصْصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا [عِبْرَةً]
لِلْمُعْتَبِرِينَ [مِنْكُمْ]

٨- النظر للأمم السابقة (مثال في السقوط)

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ،
تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَالِي كَانَتْ الْأَكَاسِرَةُ
وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَازُوهُمْ عَنْ رَيْفِ الْأَفَاقِ وَبَحْرِ الْعِرَاقِ
وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ الشُّيْحِ وَمَهَابِي الرِّيحِ وَنَكَدِ الْمَعَاشِ،
فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ وَوَبْرٍ، أَذَلَّ الْأُمَّمِ دَارًا
وَأَجْدَبَهُمْ قَرَارًا، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا
إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ وَالْأَيْدِي
مُخْتَلِفَةٌ وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي بَلَاءِ أَرْزُلٍ وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ، مِنْ بَنَاتِ
مَوْوَدَّةٍ وَأَصْنَامِ مَعْبُودَةٍ وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةٍ وَغَارَاتِ مَشْنُونَةٍ.

٩ - النظر للأمم السابقة (مثال في النهوض)

فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا،
 فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أَلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ
 النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا
 وَالتَّقَّتِ الْمَلَّةَ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ وَفِي
 خُسْرَةِ عَيْشِهَا فَكِيهِينَ [فَاكِيهِينَ]، قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ فِي ظِلِّ
 سُلْطَانٍ قَاهِرٍ وَأَوْتَتْهُمْ الْحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ
 عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ وَمُلُوكٌ فِي
 أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ،
 وَيَمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ، لَا تُغْمِزُ لَهُمْ قَنَاءٌ
 وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءٌ^(١).

١ - نهج البلاغة، للإمام علي عليه السلام، خطبة ١٩٢





خاتمة

إن عملية البحث القرآني المتجددة من شأنها أن تولّد المعارف المتنوّعة في كل عصر، فالقرآن الكريم غض طري في كل زمان، والإلتزام بهداه هو التزام بالبصيرة في الحياة، وهذا ما أعطى الأهمية لبحث موضوعات مهمة تتصل بحياة المجتمعات والأمم وبناء الحضارة، فالبصيرة في هذا الشأن هي إنقاذ لتيار واسع من الناس، وهنا تتلخّص أهمية دراسة قصص القرآن في بعدها الحضاري السنني.

إن أهم ما سلّطنا الضوء عليه في هذه الدراسة هو ما استفدناه من بصائر القرآن الكريم، من أن للتاريخ سنناً تؤثر في مسار تطوّره وتخلّفه، وتلك السنن رهينة بالمنطق الأممي السائد الذي يغلب على ثقافة المجتمع بحيث يشكل منطقاً عاماً يحدّد هوية المجتمع من خلال مواقفه تجاه (الثقافة: الهدى، والإمكانات: النعم)، ومن ذلك يتحدد مصيره.

إلا أن ذلك المصير متفاوت في نسبة التأثير سلباً أو إيجاباً، تحدّده عوامل متعدّدة، منها قوة الموقف أو مدى الكفران والتحدي، أو ما يتصف به المجتمع من خصائص قد تمنع أو تقلل من الآثار، كإرادة الخير: الإستغفار، أو وجود شخصيات نوعية: كالنبي ﷺ، أو توفّره على سلوكيات مرّمة للتصدّع والتقهقر، وهكذا الحال في مجالات التقدّم، فهناك ما يوجب الإسراع فيه بسبب لطف الله تعالى وإرادة المجتمع وسلوكياته الخيرة.

وتبقى سنن التاريخ كما أفدناها من قصص القرآن الحضارية، ذات نبض وحيوية، تحتاج في وعيها إلى نور العقل من جهة الفهم القانوني أولاً، ومن جهة التطبيق على الواقع بكل حالاته الواضحة أو الملتبسة ثانياً، مما قد يشكل تداخلاً في السنن التاريخية وتقدير سنة على أخرى. ويبقى مدى نفاذ البصيرة في هذا الشأن (وعى حيوية السنن) هو ما يرسم أمام البصير صورة لمستقبل الأمم والحضارات بوضوح تام.



المصادر والمراجع

بحسب ورودها في الكتاب

١- القرآن الكريم.

٢- تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، وجيه كوثراني،
الناشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط: الأولى
٢٠١٢م، بيروت، لبنان.

٣- النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، إيان كريب،
ترجمة، د. محمد حسين غلوم، الناشر: سلسلة عالم المعرفة، أبريل
١٩٩٩م/ ذو الحجة ١٤١٩هـ.

٤- فلسفة الحضارة، ألبرت أشفينسر، ترجمة: د. عبد الرحمن
بدوي. الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٥- تطور الفكر التاريخي في القرن العشرين، د. قاسم عبده قاسم،
ضمن كتاب حصاد القرن: المنجزات العلمية والإنسانية في القرن
العشرين (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، إشراف: فهمي جدعان،
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ومؤسسة عبد الحميد

شومان، الأردن، ط: الأولى ٢٠٠٧م.

٦- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، الناشر: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط ٢، ١٩٩٨م.

٧- المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، السيد محمد تقي المدرسي، الناشر: دار الجليل، بيروت، لبنان، ط ٢.

٨- مجلة عالم الفكر، دورية تصدر عن وزارة الاعلام الكويتية، عدد (أبريل - مايو - يونيو) ١٩٧٤م، المجلد الخامس العدد الأول، محور (فلسفة التاريخ).

٩- مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل، الناشر: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٠١م.

١٠- المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه، السيد محمد تقي المدرسي، الناشر: المركز الثقافي الإسلامي، ط ١، ١٩٨٢م.

١١- بينات من فقه القرآن (سورة القصص)، المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، درا المحجة، بيروت لبنان، ط: الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.

١٢- لسان العرب، ابن منظور.

١٣- مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي، مؤسسة

الأعلمي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م / ١٤٣٠هـ.

١٤- من هدى القرآن، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي،
دار القارئ، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

١٥- بحار الأنوار، العلامة المجلسي.

١٦- كتاب التفسير، محمد بن مسعود العياشي، المطبعة العلمية،
طهران، ١٣٨٠هـ.

١٧- الكافي، ثقة الإسلام الكليني.

١٨- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ت
: ١٣٩٣هـ،

١٩- فلسفة التاريخ، دراسة تحليلية في المناهج والسلوك، آية
الله العظمى السيد محمد الشيرازي، مؤسسة الوعي الإسلامي ودار
العلوم، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٢٠- السنن التاريخية في القرآن، السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة
التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

٢١- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتاب العربي،
ط: الرابعة ١٤٠٩هـ.

٢٢- تفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، منشورات الصدر، طهران، ط: الثانية ١٤١٥هـ.

٢٣- البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، مؤسسة البعثة، طهران، ط: الأولى ١٤١٦هـ.

٢٤- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد صادقي طهراني، منشورات الثقافة الإسلامية، قم، ط: الثانية ١٤٠٧هـ.

٢٥- نهج البلاغة، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.



الفهرس

مقدمة	٥
هذه الدراسة	٧
تقديم	١١

القسم الأول

قصص القرآن.. ملامح في فلسفة التاريخ

الإشتغال بفلسفة التاريخ.. لمحة تاريخية	١٧
واقع التنظير في فلسفة التاريخ	١٧
ملامح المحتوى	٢٠
تطور الفكر التاريخي الحديث	٢٤
القرآن وسبق الرؤية التاريخية	٣٥
القصة القرآنية كوحدة تاريخية	٣٩
القصة القرآنية في علوم القرآن	٤٧
أهداف القصص القرآنية	٥٠
القصة القرآنية في بعدها الحضاري	٥٩
القسم الأول: التاريخ الفردي	٦٠

٦٢	القسم الثاني: تاريخ الحدث والواقعة
٦٦	القسم الثالث: تاريخ الحضارات
٧٣	في المنطق الأممي
٧٦	حتميات التاريخ: رؤية قرآنية
٧٧	السنن الإلهية التاريخية والإرادة
٨٨	دور العقل في فهم القصص القرآنية
٩٢	موانع جريان السنّة
٩٤	تشكّل المنطق الإممي
١٠١	مثال تطبيقي
١٠٢	الدوائر الثلاث للتأثير
١٠٥	وقفه نقدية مع المدعى
١١٧	تفاوت المنطق الحضاري

القسم الثاني

رؤية قرآنية في مسار الحضارات

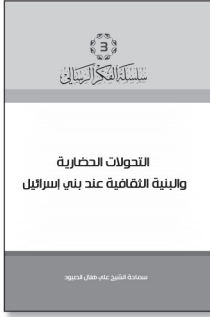
١٢٩	رؤية قرآنية في مسار الحضارات
١٣١	(١): مقومات النهوض الحضاري
١٣١	١- العلاقة الأخوية بين المصلح والمجتمع
١٣٣	٢- وضوح الرؤية ضمانة الاستمرار
١٣٥	٣- مبدأية الممارسة
١٣٧	(٢): ظاهرة الإنبهار الحضاري

١٣٨	العودة إلى الحقائق
١٤١	استخلاصات
١٤٣	(٣): المسؤولية الحضارية
١٤٤	الدخول في دائرة المفسدين
١٤٥	قياس مستوى المجتمعات
١٤٧	طريق النجاة
١٤٩	(٤): الانهيار الحضاري
١٥٠	الإسراف الحضاري
١٥٣	انبهار يتجاوز العقل
١٥٤	الامتحان الواقعي
١٥٧	ملحق: ملامح في فلسفة التاريخ عند الإمام علي <small>عليه السلام</small>
١٥٧	١- النظر للتاريخ
١٥٨	٢- أثر الأعمال
١٥٨	٣- اتباع عوامل النهوض
١٥٨	٤- اجتناب أسباب السقوط
١٥٨	٥- سنن التاريخ والاعتبار منها
١٥٩	٦- المنطق الأممي الناجح
١٥٩	٧- التحولات التاريخية
١٦٠	٨- النظر للأمم السابقة (مثال في السقوط)
١٦٠	٩- النظر للأمم السابقة (مثال في النهوض)
١٦٣	الخاتمة
١٦٥	المصادر والمراجع



قائمة بإصدارات سلسلة الفكر الرسالي

الإصدار	العنوان	المؤلف
1	قراءة في منهج تفسير القرآن عند المرجع المدرسي - تفسير بيّنات من فقه القرآن - تفسير من هدى القرآن	(ساحة السيد محمود الموسوي)
2	كلام عن الدين والحداثة	(ساحة العلامة السيد جعفر العلوي)
3	قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل	(ساحة العلامة الشيخ علي هلال الصيود)
4	القرآن والتأصيل العقائدي الإمامة نموذجاً	(ساحة الشيخ عمار عبد العزيز المنصور)
5	فقه الثابت والمتغير	(ساحة العلامة الشيخ عبد الغني عباس)
6	الأمثال القرآنية عند المرجع المدرسي	(ساحة الشيخ محمد حسن آل إبراهيم)
7	ركائز المجتمع الإيماني	(ساحة السيد سجاد المدرسي)
8	ترويض الشيطنة وبناء الأمة رؤية رسالية في بناء الأمة الصالحة وعلاج الإرهاب	(ساحة العلامة الشيخ محمد حسن الحبيب)
9	مستند الروح .. دراسات في فلسفة الأخلاق	(ساحة الدكتور الشيخ حسن البلوشي)
10	التشريع الإسلامي بين التفكير القيمي والتفكير المقاصدي	(ساحة الحجة المفكر الإسلامي الشيخ معتصم السيد أحمد)
11	قصص القرآن .. ملامح في فلسفة التاريخ	(ساحة السيد محمود الموسوي)

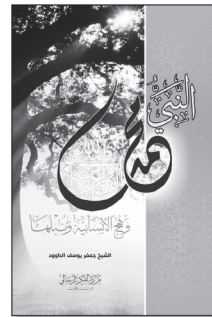
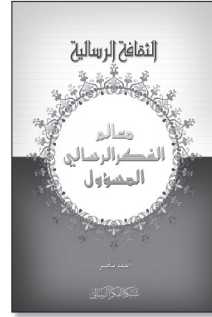




قائمة بإصدارات مركز الفكر الرسالي

الإصدار	العنوان	المؤلف
1	الثقافة الرسالية .. معالم الفكر الرسالي المسؤول	(أحمد ناصر)
2	سنوات الشتاء المموم المعرفية قبل الربيع العربي	(العلامة السيد جعفر حسين العلوي)
3	بيضاء من نور .. زيارة أمين الله شرح وتحليل	(ساحة السيد محمود الموسوي)
4	النبي محمد ﷺ وهج الإنسانية ونبلها	(ساحة الشيخ جعفر يوسف الداود)
5	أبجدية كربلاء	(السيد مرتضى الحسيني)
6	شرف الشمس	(ساحة السيد محمود الموسوي)
7	حوار ساخن عن الإلحاد	(ساحة آية الله السيد هادي المدرسي)

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث



HEATED DEBATE ON
ATHEISM

احصل على نسختك الآن

HEATED DEBATE ON
ATHEISM

HEATED DEBATE ON
ATHEISM

Available at
amazon

